سيرة الرسول

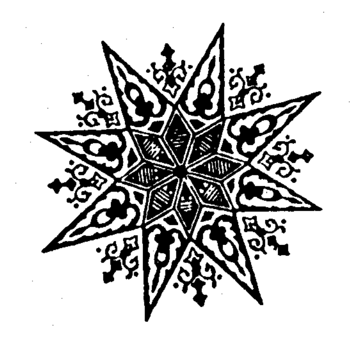
في تصورات الغربيين

للمستشرق الألماني

جوستاف بفانموللر

ترجمة الأستاذ الدكتور

محمود حمدي زقزوق



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد : ـ

يعد هذا البحث امتدادا للبحث الذى سبق أن قمنا بنشره في العدد الثاني من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر ، والذى ترجمنا فيه بعض الفصول ـ المتعلقة بوجه عام بالدراسات الاستشراقية حول الإسلام ـ من كتاب المستشرق الألمانى جوستاف بفانمولر Gustav Pfannmueller « موجز فى أدب علوم الإسلام » Hand-buch der Islamliteratur الذى أورد فيه المؤلف أهم المراجع في علم الإسلاميات في الغرب ، وصنفها تصنيفا موضوعيا وقام بتقديم عرض مختصر لمضمون كل مرجع . وقد صدر الكتاب فى برلين عام ١٩٢٣م ، وأعيد نشره عام ١٩٧٤م ، ويقع في ٤٣٦ صفحة .

وفي الصفحات التالية نتابع ترجمة بعض الفصول المختارة المتعلقة بتصورات الغربيين لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام[١] . ونظرا لطول هذا الموضوع فسنضطر إلى تقسيمه إلى حلقات ، آملين أن نستكمله في أعداد قادمة إن شاء الله ، وذلك بهدف وضع صورة إجمالية ـ أمام الباحثين ـ للتصورات الغربية بصفة عامة والتصورات الاستشراقية بصفة خاصة في المجالات الأساسية المتعلقة بالإسلام ونبيه وتعاليمه ، لعل في ذلك ما يدفع بعض الباحثين إلى التوفر على دراسة هذا الجانب في التراث الغربى .

وإذا كنا لم نحاول أن ندرس التراث الغربى ونحلله وننقده كما فعل الغربيون بتراثنا ، فلا أقل من أن ندرس ما كتبوه عنا حتى نعرف الأسباب التى من أجلها كانت حملتهم الظالمة علينا وعلى ديننا ومقدساتنا . ومن هنا تتضح حاجتنا الماسة إلى دراسة كل ما يكتب عنا وعن ديننا في السابق واللاحق دراسة عميقة واعية ، لأن هذه الكتابات تمس أقدس ما لدينا ، تمسنا في أخص خصائصنا وهو عقيدتنا التي نعتز

---

(١) انظر الصفحات من ١١٥ إلى ١٢٥ ، ومن ١٥٠ إلى ١٥٦ ، ومن ١٦٨ إلى ١٩٦ من كتاب بفانمولر .

بها ، وتمس شخص نبينا الذى جعله الله لنا « أسوة حسنة » ، وتمس قرآننا الذى جعله الله « تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين[1] » ، وتمس سنة نبينا التي هى مصدرنا الثاني للتشريع ، وبصفة عامة تمس تاريخنا كله .

وربما تكون بعض هذه التصورات الغربية عن الإسلام ونبيه قد دخلت إلى عالم النسيان ، وعفا عليها الزمن ، وخاصة ما يتعلق منها بأساطير العصور الوسطى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنها مع ذلك لا تزال وستظل جزءا أساسيا من تراث الغربيين لابد لنا من الاطلاع عليه ومعرفته .

ومن المعلوم أن الكتابات الغربية عن الإسلام ونبيه تتراوح بين الجهل التام والمعرفة الموجهة ، بين الإسفاف الشنيع والموضوعية النسبية ، بين الافتراء والإنصاف ، بين الاستعلاء والنزاهة ، بين الفحش الصارخ والتسامح العاقل .

ونحن إذ نترجم هنا هذه الصفحات بما تتضمنه أحيانا من أوصاف شنيعة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهجوم دنىء عليه وعلى دينه ، دون أن نحذف من ذلك شيئا ، فذلك لأننا على يقين من أنه لن يجدى نفعا إخفاء شيء من ذلك ، فهذا الكلام منشور بشتى اللغات الحية . وكما لا يجدى النعامة في شيء إخفاء رأسها في الرمال ظنا منها أنها ستكون بمنجاة من الصياد ، فكذلك لا يجدينا في شيء أن نتجاهل كل ما ينشر عنا وعن ديننا ، لأننا بذلك لن نستطيع أن نمحوه من تراث الغربيين ، أو نبعده من رفوف المكتبات في بلاد الغرب المختلفة ، أو نمنعه من الوصول إلى أيدى الباحثين .

وسيلاحظ القارئ في ثنايا النص الذي ننقله هنا تكرارا لبعض الأمور ، وخاصة للأسطورة التي نسجها خيال الغرب حول وفاة محمد صلى الله عليه وسلم . والسبب في هذا التكرار يرجع إلى أن بفانموللر يعرض هنا مؤلفات مختلفة تتردد فيها هذه الأساطير حيث يعزف الجميع نفس اللحن . ومن خلال هذا التكرار نتبين مدى الانتشار الواسع لمثل هذه الأساطير في تلك الأزمنة التي احتفلت بهذا اللون من الأساطير .

---

(١) سورة النحل : ٨٩

والفصول المختارة التي نترجمها هنا لم يضع لها المؤلف أية هوامش أو عناوين جانبية ، وسنسمح لأنفسنا بتقسيم الموضوع إلى فقرات ووضع عناوين خاصة لهذه الفقرات تحمل في أغلبها اسم الكاتب الذي تتناوله كل فقرة على حدة . وبالإضافة إلى ذلك سنقوم بوضع هوامش مختلفة نعرِّف فيها بالكتَّاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض المزاعم أو المفتريات على الإسلام ونبيه ، ونوضح فيها أيضا بعض المفاهيم الواردة في ثنايا النص طالما كان ذلك ضروريا .

ترجمة وتعليقات

فيكتــــور شـــــوفـــان : -

يقدم لنا فيكتور شوفان[1] Victor Chauvin فهرسا مفصلا للكتابات التي صدرت حول محمد وذلك في الجزء التاسع من كتابه الشيق : « فهرس المصنفات العربية أو المصنفات المتصلة بالعرب » Bibliographie des ouvrages Arabes ou relatifs aux Arabes .

وفي القسم الأول من هذا المؤلف يتناول شوفان المؤلفات الحديثة ، أى المؤلفات التي صدرت حول محمد في الفترة الممتدة من عام ١٨١٠ حتى عام ١٩٠٨ . وبجانب ذكره لعناوين هذه المؤلفات بكل دقة فإنه يقدم لنا أيضا بيانا بمحتويات المؤلفات ذات الأهمية ، ويشير إلى أهم ما وجه إليها من نقد .

أما القسم الثاني فإنه يتضمن ذكر المؤلفات السابقة على عام ١٨١٠ ، ويتناول بالتفصيل بصفة خاصة المؤلفات البيزنطية والأسبانية ومؤلفات القرون الوسطى .

وفي القسم الثالث يتناول رسائل جامعية حول بعض المسائل الخاصة مثل : الوفود ، بدر ، بحيرى ، الصرع[2] ، فاطمة ، نساء محمد ، شجرة النسب ،

---

(١) فكتور شوفان (١٨٤٤ - ١٩١٣) مستشرق بلجيكى ، تخرج في جامعة ليج ، وعمل أستاذا للعربية بها . وقد وضع الفهرس المشار إليه في اثنى عشر جزءا ، أصدر منها أحد عشر جزءا من عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩٠٩ ، ونشر (بولن) الجزء الثاني عشر في عام ١٩٢٢ .

(٢) لعل القارئ يلاحظ هنا أن موضوع « الصرع » مقحم بين هذه الموضوعات التي تتحدث عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمر هنا ربما يدور حول خطأ مطبعى أو خطأ في الترجمة ! ولكن الأمر ليس كذلك . فالحديث عن الصرع هنا حديث مقصود ، إذ يحلو لبعض المستشرقين أن يفسروا ظاهرة وحى الله إلى نبيه عليه الصلاة والسلام بأنها كانت عبارة عن نوبات من الصرع تعتريه بين الحين والحين ، وذلك انطلاقا من مبدأ عدم الاعتراف بنبوته ، وبالتالى فليس هناك أصلا - في زعمهم - وحى كان يأتيه .

وهذا الموقف يدخل في باب التعصب الأعمى الذى هو نفسه مرض لا أمل في شفائه ولا جدوى من علاجه . وسنعود للحديث مرة أخرى عن هذا الموضوع في تعليق آخر على كلام يدور حول نفس المعنى .

المعجزات ، وفاة محمد ، مولده ، نبالة نسبه ، أسماء محمد ، صورته الجسمية وأخلاقه . . . . الخ[1] .

وأما القسم الرابع فإنه يخصصه للأساطير الغربية عن محمد ، كما يخصص القسم الخامس للحديث عن محمد في الأدب . أما ختام الكتاب فيتكون من تقييم للمؤلفات وإضافات وتصويبات وملحق (يتضمن قائمة بأسماء المؤلفين العرب من كتاب السيرة المحمدية طبقا لما أورده بروكلمان) ، وبيان بالمحتويات .

وقد بذل شوفان جهدا هائلا في جمع المادة ، ولكن الموضوعات قد تم ترتيبها للأسف ترتيبا أبجديا وليس حسب تسلسلها الزمني .

وبالمناسبة فإن كل المؤلفات حول الإسلام تكاد جميعها أن تكون مشتملة على أوصاف لحياة محمد (ص ١٦٤ ـ ١٩٨[2]) وعلى مادة ببليوجرافية ثرية عن حياة مؤسس هذا الدين وأعماله .

مؤلفات أخرى : ـ

وفي بحثه عن (محمد وأصول علم الإسلاميات) Mohomet et les origines de l'islamisme يصف « رينان[3] » الأفكار المختلفة ـ التي كونتها العصور والشعوب المختلفة عن محمد ـ وبيان الصلة بينها ، بأنها عمل مشكور من جانب علم التاريخ .

---

(١) أورد شوفان هذه المسائل حسب الترتيب الأبجدى في الفرنسية . ولهذا يتحدث عن وفاة محمد صلى الله عليه وسلم قبل حديثه عن مولده . وقد انتقد بفانمولر هذا الترتيب ـ كما سيأتى بعد قليل ـ .

(٢) هذه إشارة إلى صفحات من كتاب (بفانمولر) الذى نترجم منه هذه الفصول ويدور حديث بفانمولر في هذه الصفحات حول المؤلفات الحديثة في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) إرنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسى . من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) وقد ترجمه إلى العربية عادل زعيتر . وفيه يذهب رينان إلى القول بأنه لولا ابن رشد ما فهمت فلسفة أرسطو . ومن مؤلفاته أيضا : تاريخ الأديان وحياة يسوع (ألفه في أحد الأديرة اليسوعية في لبنان) .

وقد كان رينان أول من قرر أن الجنس السامى دون الجنس الآرى كما صرح بذلك في كتابه تاريخ اللغات السامية . تعرف على جمال الدين الأفغاني في باريس ودار بينهما نقاش حول الإسلام في جريدة (الديبا) الفرنسية . (انظر المستشرقون للعقيقى ١٩١/١ ، وزعماء الإصلاح لأحمد أمين) .

ولكن رينان نفسه لم يقدم لنا إلا بعض الإشارات .

ويقدم لنا سنوك هورجرونيه[1] S . Hurgronje في حديثه عن سيرة محمد التي قام بتأليفها جريمه[2] Grimme - يقدم عرضا مختصرا عن أقدم كتب السيرة المحمدية (في أوربا) . وينطلق هورجرونيه في ذلك من كتاب ج . هـ . هوتنجر[3] Hottinger « تاريخ الشرق Historia orientalis » (الصادر في زيوريخ عام ١٦٥١) . والهدف الذي يضعه هوتنجر نصب عينيه ليس هو تقدم التفسير وتقدم التاريخ العام فحسب ، وإنما هو بالأحرى يرمى إلى بلوغ هدفين آخرين : ففى مقابل الاتهام الذى وجهه الكاثوليك إلى دعاة الإصلاح بأنهم ينهجون نهج تعاليم الإسلام بطريقة خفية يقوم هوتنجر - من ناحية - بمحاولة البرهنة على عكس ذلك ، أى البرهنة على أن حجج بلارمين[4] Bellarmin للدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قد استعيرت من علم العقيدة الإسلامى . ثم رغب هوتنجر (من ناحية أخرى) كما فعل ببلياندر Biblian-der من قبل (ص ١٤٧[5]) بنقضه للقرآن - في الإسهام في مكافحة الخرافات

---

(١) سنوك هورجرونيه (١٨٥٧ - ١٩٣٦) مستشرق هولندى . يعد عميد العربية بعد جولدتسيهر وفي طليعة الرواد في دراسات الفقه الإسلامى والأصول والتفسير والحديث في أوربا . له بحوث ودراسات عديدةعن الإسلام وتاريخه وشريعته ، وحول طابع الإسلام وانتشاره ، وإبراهيم في القرآن ، والإسلام والمشكلة العنصرية ، وسياسة النبى الدينية . ومن مؤلفاته أيضا : الحج إلى مكة ، والمهدى ، ومكة وجغرافيتها في القرن التاسع عشر .

(٢) هـ . جريمه (١٨٦٤ - ١٩٤٢) كان أستاذا للغات الشرقية في مونستر بألمانيا . ومن أعماله : محمد (في جزأين) ، وترجمة القرآن ، وله دراسات عديدة حول : اللغات السامية ، وعلماء الكلام ، والإسلام واليهودية ، واسم محمد ، وغير ذلك من موضوعات .

(٣) هوتنجر (١٦٢٠ - ١٦٦٧) مستشرق سويسرى ، كان أستاذا للغات السامية في كل من زيوريخ وهايدلبرج . ومن أعماله : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

(٤) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ - ١٦٢١) كاردينال يسوعى ، كان في طليعة المهاجين للإصلاح الدينى الذى تم على يد مارتن لوثر وأتباعه .

(٥) يحيل بفانموللر هنا إلى ص ١٤٧ من كتابه ، وقد أشار هناك إلى أن كتاب القسيس السويسرى ببلياندر - والذى صدر عام ١٥٤٣م في ثلاثة مجلدات - يمثل الوضع الذى وصل إليه الجدل كله ضد الإسلام حتى ذلك العصر ، كما يمثل حاصل هذا الجدل . فالكتاب لا يشتمل فقط على الترجمة اللاتينية للقرآن والتي تمت قبل ذلك بأربعمائة عام ، وإنما يشتمل أيضا على عدد كبير من الكتابات المضادة للقرآن وللإسلام ابتداء من عصر بطرس الموقر حتى عصر الإصلاح الدينى .

المحمدية والسيادة التركية التي قامت مع الدين وسقطت معه . ولكن كتاب هوتنجر كله مملوء بالأحكام السابقة التي كان لا يزال يحس بها حينذاك عالم من العلماء ضد المذهب المحمدى .

ونصادف أيضا نفس النفور الداخلى إزاء محمد وتعاليمه لدى الأب ماراتشى[1] الذى قام بنشر ترجمة لاتينية للقرآن في عام ١٦٩٨ مع نقض مفصل للقرآن (ص ٢١٤) ، وكذلك نجد هذا النفور لدى بريدو[2] rideaux الذى جعل كتابه (حياة محمد) مرآة تعكس الصورة الخاصة لكل من الكفار والزنادقة وأصحاب مذهب التأليه الطبيعى والإباحيين .

ريلاند : -

أما الكتاب الصغير الممتاز الذى ألفه هادريان ريلاند[3] في عام ١٧٠٥ بعنوان (الديانة المحمدية) De religione Mohammedica (ص ٦٣ وما بعدها) فإنه

---

(١) يحيل بفانموللر هنا أيضا إلى ص ٢١٤ من كتابه ، وهناك يشير إلى أن الأب الإيطالى لودفيج ماراتشى أمضى أربعين عاما في دراسة القرآن وكتب التفسير العربية لكى يحارب محمدا بنفس سلاحه . وقد كانت حصيلة هذه الدراسة هذا العمل « الضخم » الذى أنجزه ، والذى تضمن النص العربى الكامل للقرآن مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش توضيحية ونقض لكل فقرة قرآنية على حدة . وقد أصدر ماراتشى قبل ذلك - في عام ١٦٩١ - كتابا حول نقض القرآن ، قدم فيه لمحة عن حياة محمد وعن القرآن ثم برهن - كما يزعم - على بطلان الإسلام وحقيقة الديانة المسيحية .

(٢) هو : همفرى بريدو (١٦٤٨ - ١٧٢٤) مستشرق انجليزى . ويعلق نجيب العقيقى على كتاب حياة محمد لبريدو بقوله : إنه « ترجمة تافهة لا غناء فيها » (المستشرقون ٢/ ٤٥ الطبعة الرابعة) .

(٣) هادريان ريلاند (١٦٧٦ - ١٧١٨) مستشرق هولندى ، كان أستاذا للغات الشرقية في جامعة أوترشت بهولندا . ومن مؤلفاته التي كان لها صدى بعيد في أوربا كتابه عن الإسلام في مجلدين ، أحدهما عن الديانة الإسلامية والثاني حول تصويب فكرة الأوربيين الخاطئة عن الإسلام . وقد ترجم الكتاب إلى عدة لغات أوربية . وله أيضا : تعليم المتعلم للزرنوجى ، وفي مقدمته فهرس لجميع النصوص العربية المطبوعة في أوربا حتى أيامه ، وله كتاب في الجهاد ، والجغرافيا والآثار في فلسطين . (المستشرقون ٢/ ٣٠٤) .

ويحيل بفانموللر هنا إلى ص ٦٣ وما بعدها من كتابه . وهناك يبين بفانموللر أن ريلاند كان أول من قام بعرض علمى للإسلام في أوربا . ويشير إلى ردود الفعل التي أحدثها كتاب ريلاند عن الإسلام . (انظر ترجمتنا لذلك فى ص ١٠٧ وما بعدها في العدد الثاني من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر) .

يفصح عن طابع مختلف تمام الاختلاف . فالإهداء المختصر لشقيقه والمقدمة الطويلة التى لا تزال قراءتها حتى اليوم على جانب من الأهمية يبينان لنا كيف كان هذا العالم مدفوعا بحبه للحقيقة وبحسه للعدالة التاريخية إلى رسم صورة أمينة للإسلام .

هل من الممكن أن تجد ديانة متناقضة - كما يصفها المؤلفون المسيحيون - ملايين الاتباع ؟

دعوا المسلمين أنفسهم يصفون لنا دينهم !

وفضلا عن ذلك فإنه يتحتم على المرء أن يعرف الإسلام جيدا لكى يستطيع أن يحاربه بطريقة فعالة . ولكن ضرورة محاربته تنمو مع كل يوم لأن علاقات الأوروبيين بالمحمديين - في تركيا وأفريقيا وسوريا وإيران وجزر الهند التابعة لهولندا - تتسع دائرتها باستمرار . وفي وسع المرء عن طريق النقاش الديني - أن يكسب المسلمين إلى صف العقيدة الحقة ، وهذا أفضل بكثير من القيام بتوجيه الشتائم لهم بطريقة حمقاء .

والمعرفة الدقيقة بالإسلام وأتباعه ستجعلنا نضع مكان الكبرياء الساذجة الإحساس بالشكر لله الذى أنعم علينا من فضله بالمسيحية . وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لم يدر بخلد ريلاند أن يقوم بتمجيد الإسلام . فهو بالأحرى يستفظعه - كما يوضح هو ذلك[1] - إنه يريد فقط أن يتعرف المرء على الإسلام تعرفا حقيقيا ، وألا يكون لنفسه عنه تصورات غير معقولة .

بولانفلييه : -

ولم يتأخر رد الفعل طويلا ضد علماء من أمثال ماراتشى وبريدو اللذين لم يستطيعا أن يريا في الإسلام أى شىء طيب . ففى عام ١٧٣٠ ظهر في لندن كتاب (حياة محمد) - وهو كتاب لم يكتمل - من تأليف الكونت بولانفلييه Boulainvillier o وقد

---

(١) نعتقد أن صدور مثل هذه الأوصاف من ريلاند كان مجرد ذر للرماد في العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بمثل هذه المبررات ، فحرمت تداول الكتاب ، لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس (راجع أيضا كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ، ص ٣٣ - ٣٥ ، الدوحة ١٤٠٤هـ) .

مجد المؤلف فيه مؤسس الإسلام بوصفه واحدا من الحكماء ، وأحل دينه في جوانب كثيرة في محل أرفع من المسيحية المألوفة .

ولم يكن الأمر الذى دفع هذا الكونت إلى هذا المديح لنبى مكة هو فقط المحبة الخالصة للحقيقة والعدالة ، فقد صور لنفسه ـ بمساعدة بعض المؤلفات الأوروبية ـ نبيا يرضي حاجة في نفسه ، وكان يرى في محمد نبيا قام بتمدين شعبه وأنشأ دينا عقليا ، ويقرر بولانفلييه بسرور خفى أن محمدا ، في الوقت الذى يحترم فيه تقوى الزهاد والرهبان ، يندد بالكهانة الدينية أشد تنديد . وهذا الميل المعادى لرجال الكهنوت في رواية بولانفلييه سرعان ما اكتشفه معاصروه أيضا .[١]

جان جانييه : ـ

وبعد ذلك بوقت قصير رأينا جان جانييه[٢] Jean Gagnier يتجه ضد بولانفلييه وضد طريقة عرضه المنحازة ، وفي عام ١٧٢٣ قام جانييه بترجمة سيرة عربية لمحمد ـ حديثة نسبيا ـ إلى اللغة اللاتينية . وبعد قيام الكونت بولانفلييه بنشر روايته شعر جانييه بأنه يتحتم عليه أن يصف بطريقة غير متحيزة ـ حسب المصادر المتوافرة لديه ـ

---

(١) عندما نشر بولانفلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد باعتباره رسولا للعناية الإلهية (انظر الشرق والإسلام في أدب جوته لعبد الرحمن صدقى ص ٢١) ، ويحاول بفانمولار هنا أن يقلل من شأن النظرة الإيجابية لبولانفلييه إلى الإسلام ونبيه ، وذلك بارجاعها إلى ميول ذاتية ونزعة معادية للكنيسة ، وفيما يلى سنجد أيضا جانييه يصف محاولات بولانفلييه بأنها مبالغات مضحكة .

وهكذا نجد أنه كلما اقترب كاتب غربي من رؤية حقيقة الإسلام انبرت الأصوات من كل مكان في الغرب تتهمه بالمبالغة أو الغرض أو العداء للكنيسة وما شاكل ذلك من اتهامات ، فهل هذا من العلم والموضوعية في شيء ؟ ألا تكون دراسة الاسلام دراسة علمية موضوعية إلا اذا أبرزت مثالب وأظهرت نقائص تلصق بالإسلام ؟ إن هذا حقا موقف غريب ليس له مبرر علمى أو أخلاقى .

(٢) جان جانييه (١٦٧٠ ـ ١٧٤٠) كان أستاذا للعبرية ثم العربية في أكسفورد . قام بترجمة رسالة الرازى عن الجدرى ، ونشر من كتاب أبي الفداء « مختصر تاريخ البشر » (سيرة النبى) متنا وترجمة لاتينية ، ثم نشر المختصر كله مع ترجمة فرنسية . وقد ألف كتابا عن حياة محمد في جزأين بالفرنسية (امستردام ١٧٣٢) . راجع : المستشرقون ٢/ ٤٥ .

ماذا يقول المحمديون عن نبيهم ، وذلك لكى يحافظ على الخط الوسط الصحيح بين الحماس الحاقد لكل من ماراتشي وبريدو من ناحية والمبالغات المضحكة من جانب الكونت بولانفلييه من ناحية أخرى . ولكن مقدمة كتاب جانييه ، التي يصف فيها محمدا بأنه أكثر الناس شرا ، وبأنه عدو لدود لله ، تبين لنا ماذا ينبغى أن يفهم المرء من « حياده[1] » .

سيل : -

أما سيل[2] Sale الانجليزى فإنه في مقدمته التمهيدية التي صدر بها ترجمته للقرآن قد حاول في البداية تقدير محمد تقديرا عادلا ، ولكنه لم ينجح في القضاء على الأحكام السابقة السائدة ، فقد ظل محمد مدة طويلة ينظر إليه على أنه مضلل .

---

(۱) يفهم المرء من ذلك بطبيعة الحال عداوة صريحة وتحيزا مبدئيا ، إذ ما معنى أن يقدم جانييه لكتابه بهذه الأحكام الباطلة والأوصاف الكاذبة ؟

إن الأمر هنا ليس له لدينا إلا تفسير واحد ، وهو قصد توجيه القارىء من بادىء الامر لقراءة الكتاب في ضوء هذه الأحكام ، وبهذا يؤثر جانييه على القارىء ويضع قيدا على حريته ، ويقدم له بذلك نظارة سوداء تلون كل ما تقع عليه عينه بهذا اللون القاتم . وهذا ليس من العلم ولا من الإنصاف في شيء ، ولا يمت إلى الأمانة العلمية بسبب .

ولا يشفع لجانييه بعد ذلك أنه - كما يقول بفانموللر ص ۱۷۱ - كان يعتمد في كتابه اعتمادا تاما على المؤلفين العرب ، ويدعهم يتحدثون بأنفسهم ، مبتعدا تماما عن المدح أو الذم ، متجنبا إضافة أى شيء من آرائه ، وأن كل همه كان هو تعريف الأوروبيين بمحمد من واقع ما يرويه المسلمون ويعتقدون .

فالتناقض واضح بين المقدمات والنتائج ، وقصد الإساءة هو الذى يوجه جانييه في كتابه . وهكذا نرى أن « الحياد » الذى يعنيه هو مجرد لفظ فارغ لا معنى له .

(۲) جورج سيل (١٦٩٧ - ١٧٣٦) مستشرق انجليزى ، ترجم القرآن إلى الانجليزية ونشرت الترجمة في لندن عام ١٧٣٤ وقد اشتملت على حواشى وشروح ومقدمة مسهبة عن الدين الإسلامى تضمنت الكثير من الإفك واللغو والتجريح .

فولتير : -

أما فولتير[1] فقد كتب روايته المأساوية « محمد أو التعصب » دون أن يراعى الحقائق التاريخية . وقد كان فولتير نفسه مقتنعا بأن كتابه المنبثق من خياله يتناقض تناقضا حادا مع التاريخ . ومع ذلك فقد أراد أن يعرض على الجمهور شخصية تارتوف[2] Tartuffe ممسكا سلاحا في يده ، وكان يعتقد أنه يستطيع أن يعير محمدا هذا الدور . ولكن فولتير لم يكن له أن يفعل ذلك لو لم يكن التصور السائد حينذاك هو أن محمدا يمثل التعصب والتضليل الدينى[3] .

وهكذا كانت أوربا تموج بآراء كثيرة حول عمل محمد ، ولكن الحس التاريخى الحقيقى الذى يتمتع به خيرة علماء عصرنا كان لا يزال معدوما تماما .

---

(١) فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) فيلسوف وأديب فرنسى شهير ، يعد قطب عصر التنوير في فرنسا .

(٢) تارتوف اسم يطلق على شخصية الرجل المنافق في إحدى مسرحيات الأديب الفرنسى الشهير موليير (١٦٢٢ - ١٦٧٣) والتى تحمل نفس الاسم أيضا .

(٣) إنه لأمر غريب حقا أن يلجأ فولتير إلى التشهير بالنبى عليه الصلاة والسلام جاعلا منه في هذه الرواية التى مثلت على المسرح « منافقا لا يعرف الحياء ومضللا وظالما تدفعه النوازع الحسية والتعطش للدماء الخ » وهو يعلم تمام العلم أن كل ذلك غير صحيح ولا يتفق مع الحقيقة التاريخية . ولكن فولتير أراد بذلك أن يتخذ من محمد أداة حرب على الكنيسة على طريقة « إياكِ أعنى واسمعى يا جارة » ، ولذلك يقول بفانموللر : « لكن فولتير لم يرد إطلاقا بمأساته أن يصور شخصية محمد التاريخية ، وإنما أراد بذلك فقط أن يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد التضليل الكهنوتى ، وضد الخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من تعصب » .

وقد مثلت المسرحية في مدينة « ليل » عام ١٧٤١ ، ثم قدمتها « الكوميدى فرانسيز » في باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركى لدى الحكومة الفرنسية وعقد مؤتمرا دعا إليه كتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة تمثيلها حينذاك (انظر : الشرق والسلام في أدب جوته لعبد الرحمن صدقى ص ٢٣) .

وبجانب هذه الصورة الظالمة نجد فولتير في مقالته Essai Sur les moeurs يقدم لنا صورة أخرى يصف فيها محمدا بانه « الرجل العظيم الذى جمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والكاهن ، والذى لعب أعظم الأدوار التى يمكن أن يلعبها إنسان على ظهر الأرض » (انظر بفانمولر ١٧٢) . وفي وسط هذا البحر المتلاطم بأمواج التخبط الواضح والتناقض الصارخ لم يكن هناك مكان للحقيقة التاريخية والموضوعية النزيهة . ومما هو جدير بالذكر أن فولتير كان يعد من الملاحدة حينا ومن منكرى النبوات عامة في أكثر الأحايين .

جوستاف فايل : -

وعندما نشر الأستاذ جوستاف فايل[1] في عام ١٨٤٣ كتابه عن سيرة محمد كان في وسعه أن يقول بحق في مقدمته إن آخر أسلافه الذى كان لمؤلفه قيمة شخصية كان جانبيه الذى ألف كتابه قبل ذلك بقرن ونصف .

وقد قام فايل بخطوة كبيرة إلى الأمام ، وذلك بسعيه في رسم صورة أكثر تاريخية لأصول الإسلام على أساس من مصادر أكثر جودة وأوفر عـددا مما لم يكن متـوافرا لأسلافه . وقد حققت الدراسات الاستشراقية تقدما هائلا في خلال الخمسين عاما التي مضت بعد ظهور كتاب فايل ، ولكن ذلك لم يقلل في شيء من الخدمة التي أداها فايل بوصفه أول من قام ببحث نقدى تاريخى حول هذا الموضوع . والنتيجة التي ينتهى إليها فايل في كتابه هى أن محمدا يمكن أن يرى أيضا في أعين غير المحمديين بأنه « رسول الله » .

كوسان دى برسيفال : -

ومنذ ذلك الوقت بدأ محيط العلماء يزداد ميلا إلى مثل هذا التقدير . وهكذا يوضح كوسان دى برسيفال[2] Caussin de Perceval في « مقالاته » أنه من غير المعقول ألا يستطيع المرء أن يرى في محمد إلا مخادعا ذكيا أو عبقـرية طمـوحة . لقـد كان

---

(١) يأتى التعريف بجوستاف فايل لدى نجيب العقيقى (المستشرقون ٢/٢٦٦) تحت اسم سيمون فـايل ، ولعله سهو ، فالمعلومات الواردة تحت هذا الاسم تخص جوستاف فايل (١٨٠٨ - ١٨٨٩) وهو مستشرق ألمانى شهير ، قام بنشر وترجمة العديد من المؤلفات العربية . ومن مؤلفاته التي تعنينا هنا الكتاب الذى يشير إليه بفاغمولر وهو « محمد النبى : حياته وتعاليمه » شتوتجارت ١٨٤٣ .

(٢) هو : أرمان كوسان دى برسيفال (١٧٩٥ - ١٨٧١) كان أستاذا للعربية في معهد فرنسـا وعضوا في المجمـع اللغوى . ومن بحوثه : وقعة بدر - مرحلة من حياة الرسول (المجلة الاسبوعية ١٨٣٩) وباكورة تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات (١٨٤٧) وقد تناول فيه العرب قبل الإسلام ثم عصر النبى ، ثم انضواء القبائل تحت راية الاسلام - (المستشرقون ١/١٧٧) .

محمد ـ حسب رأيه ـ على وجه الخصوص إنسانا مقتنعا بأنه قد انتدب لتخليص شعبه من الضلال والعمل على إحيائه .

وقد كانت المصادر التي استطاع هؤلاء الكتاب أن يضعوها تحت تصرفهم مصادر ثرية جدا بالمقارنة إلى ما كان متوافرا لأسلافهم ، ولكنها مع ذلك كانت أقل بكثير جدا مما أصبح متيسرا لنا في خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة[١] . وبالاضافة إلى ذلك كانت لا تزال هناك ثغرات هامة في منهج بحوثهم .

وقد عرف كل من فايل وكوسان ـ مثلما عرف أسلافهما ـ أن المؤلفات العربية غالبا ما دخلت عليها يد التغيير لأسباب عقدية أو لأسباب حزبية طائفية . وقد ميزا ببصيرة أكثر من ذى قبل الجيد منها من الردىء . ولكنهما لم يلاحظا ملاحظة كافية أن سيرة محمد ـ على الأقل ما ينتسب منها إلى الفرق الإسلامية ـ قد تطورت وأعيد تشكيلها بنفس القدر الذى تطور به الدين المحمدى نفسه ، الأمر الذى يجعل التقدير الدقيق للمصادر لا يمكن أن يتم إلا على أساس من الدراسة العميقة لتاريخ « الكنيسة » المحمدية[٢] .

---

(١) يلاحظ أن بفانموللر قد كتب هذا الكلام عام ١٩٢٣ .

(٢) استخدم بفانموللر هنا تعبير « الكنيسة المحمدية » وهو مصطلح غريب عن الإسلام وعن الدراسات الإسلامية بوجه عام . والمعروف لكل المستشرقين أنه لا توجد في الإسلام مؤسسات كهنوتية لها سلطات روحية على أتباعها مثلما هو الحال بوجه خاص في الكنيسة الكاثوليكية .

وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن هناك حتى عصريها من لاحظ ملاحظة كافية الفرق بين « تعاليم محمد » وبين « الإسلام » الذى انبثق عنها[1] . ولو كان هناك من لاحظ ذلك لكان يطيب للمرء عندئذ أن يتحدث عن « دين محمد » وليس عن « تعاليمه » ولكانت الشهادة المسموح بها لهذا الدين هى القرآن وحده ، وذلك بتفسير تاريخى طبقا لأقدم الأحاديث . وبدلا من معرفة هـذا الفرق راح المـرء يخلط بين القـديم والحديث وراح يمدح محمدا أو يذمه لأمور لم يفكر فيها محمد على الإطلاق .

وقد تم أخيرا فتح الطريق الصحيح عن طريق المؤلفات التي ظهرت في وقت واحد تقريبا لكل من نولدكه وموير واشبرنجر .

---

(١) يثير بفانموللر هنا قضية غريبة ، حيث يفهم أن الإسلام شيء وتعاليم محمد شيء آخر ، فدين محمد وهو الإسلام يختلف عن تعاليم محمد ، على اعتبار أن الإسلام قد طرأت عليه تطورات مختلفة لم يكن لها وجود في التعاليم الأصلية للنبى عليه الصلاة والسلام . وهذا اضطراب فى الفهم لا أساس له . فالإسلام وتعاليم محمد شيء واحد ومصدرهما هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

أما ما طرأ على الفكر الإسلامى (وليس على الإسلام) من تطورات مختلفة على مر العصور ، وما نتج عن ذلك من ظهور مذاهب أو فرق إسلامية مختلفة فهذا أمر لا يمس الإسلام أو تعاليم محمد في شيء ، لانه يتعلق فقط بأفهام أصحاب هذه المذاهب والفرق ، ولا يتحمل الإسلام مسئولية ما قد يكون في هذه الأفهام في بعض الأحيان من خلط أو اضطراب في الفهم .

وعلى ذلك فإن التفرقة الصحيحة التي كان على بفانموللر أن يدركها هى بين الإسلام والفكر الإسلامى ، على اعتبار أن الإسلام وحى الله لنبيه ليقوم بتبليغه وتبيينه للناس « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » أما الفكر الإسلامى فهو فكر إنسانى يخطىء ويصيب ويعتريه التطور والتغيير . وقد فتح الإسلام أمام المسلمين طريق الاجتهاد في الأحكام الفرعية ، وقرر أن المجتهد إذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد وإذا أصاب فله أجران ، وذلك تشجيعا على الاجتهاد والبحث عن الحلول لكل ما يجد في المجتمع الإسلامى من مشكلات .

موير : -

أما موير[1] Muir فإنه على الرغم من أرثوذوكسيته الانجليزية فإنه قد اكتسب خلال دراسته تعاطفا معينا لرجل (يقصد محمدا) ظهر له أنه كان ضحية للشيطان[2] . وعلى الرغم من أن موير كانت تنقصه المادة الضرورية لسيرة حقيقية فإن كتابه يتضمن مع ذلك سلسلة من الأبحاث النقدية التي لها قيمة باقية .

شبرنجر : -

أما كتاب شبرنجر[3] Sprenger « حياة محمد وتعاليمه » فإنه يبرهن من عنوانه على أن المؤلف لم يفرق تفرقة كافية بين دين محمد وبين الإسلام . وغالبا ما وجدت الخدمات الجليلة التي قام بها اشبرنجر ما تستحقه من تقدير . ولكن فيلهاوزن وحده هو الذى قدم لنا تقديرا نقديا حقيقيا لكتاب شبرنجر (انظر : محمد في المدينة لفيلهاوزن ، برلين ١٨٨٢ ص ٢٠ وما بعدها) . وقد خلص اشبرنجر إلى الاقتناع بأن

---

(١) السير وليم موير (١٨١٩ - ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندى ، عمل في الهند ثم اختير رئيسا لجامعة أدنبره . ومن مؤلفاته : حياة محمد ﷺ في أربعة أجزاء ، وقد صدر في لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ . وله أيضا حوليات الخلافة ، ومصادر الإسلام ، ودولة المماليك في مصر .

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم ليس في حاجة إلى مثل هذا التعاطف المردود على صاحبه . وقد سبق لمشركى مكة أن زعموا أن محمدا به مس من الجن ، فلا جديد في زعم موير فهو ترديد لمزاعم قديمة في صورة أخرى .

(٣) الويس شبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣) مستشرق نمساوى الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٩٣٨ ، عمل في الهند ثم عمل أستاذا للغات الشرقية في جامعة برن بسويسرا . نشر الكثير من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : أصول الطب العربى على عهد الخلفاء ، وحياة محمد في ثلاثة أجزاء . وقد صدر الجزء الأول في (الله أباد) عام ١٨٥١ بالانجليزية ، ثم صدرت الأجزاء الثلاثة بالألمانية في برلين من ١٨٦١ حتى ١٨٦٥ ، وأعيد طبعه عام ١٨٦٩ . ويعلق المستشرق الألمانى المعاصر « رودى بارت » على كتاب شبرنجر (حياة محمد) بأنه كتاب جاء مخيبا للآمال في أكثر من ناحية وأنه لم يراع شروط ومتطلبات التقرير العلمى (انظر : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية لبارت ، ترجمة مصطفى ماهر ص ٢٣) .

محمدا كان إنسانا هستيريا[1] . فلنترك جانبا ضعف الوقائع التي يستند إليها التشخيص ! إنه على كل حال سيتحتم على المرء أن يعترف بأن القيمة الخاصة لمحمد يجب أن تتمثل في هذا الذى يختلف فيه عن الهستيريين الآخرين ، وليس في الحالة المرضية التي يشترك فيها معهم .

---

(١) سبق أن أشرنا في تعليق سابق إلى زعم بعض المستشرقين بأن ظاهرة الوحى للنبى لم تكن إلا نوبات من الصرع تعتريه ، وينهج اشبرنجر هنا نفس المنهج حين يزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان مصابا بالهستيريا . وأساس هذه المزاعم كلها يكمن في محاولة استبعاد القول بنبوته وإنكار تلقيه الوحى من عند الله .

وما دام هذا هو الموقف المبدئى لهذه المزاعم فلن يستطيع القائلون بها فهم ظاهرة الوحى . ولو طبقنا هذه المزاعم على جميع الأنبياء والمرسلين لأبطلنا الأديان السماوية جميعا .

وهذا الموقف ليس أمرا جديدا فقد سبق لمشركى مكة أن اتخذوا موقفا مماثلا من محمد صلى الله عليه وسلم ، كما اتخذ المعاندون من أقوام الأنبياء السابقين مواقف مشابهة . والقرآن نفسه يخبرنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام والمرسلين من قبله قد وجهت إليهم تهمة الجنون من أقوامهم . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عنهم : « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » (الحجر : ٦) وقوله : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » (الذاريات : ٥٢) ، وقوله : « ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » (الدخان : ١٤) ، وقوله « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » (القمر : ٩) ، ولسنا هنا في حاجة إلى مناقشة مستفيضة لأسطورتى الصرع والهستيريا ، فكل من يعرف أعراض هذين المرضين وما لهما من آثار في شخصية المصاب بأى منهما ، ويعرف السيرة الصحيحة لمحمد صلى الله عليه وسلم يعرف حتما أن هذه المزاعم لغو باطل وافتراء كاذب لا يستحق أن يأخذه المرء مأخذ الجد .

وقد أساء المستشرقون عن جهل أو عن عمد فهم الظواهر التى كانت تصاحب الوحى عند نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم من أنه ـ كما يقول الرسول نفسه ـ كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وكما تقول عائشة : « رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا » كما روى ذلك البخارى في صحيحه في حديث مشهور .

ولو تأمل الباحث المنصف في أن تلقى الوحى يعنى الانسلاخ عن حال البشرية إلى حال الملكية ، لعرف أن هذه الظواهر المصاحبة لنزول الوحى ليست إلا نتيجة لهذا الانسلاخ .

وقد كان الكتاب البيزنطيون ، وبوجه خاص ثيوفانس Theophanes ، هم أول من أذاع في الغرب أسطورة الصرع . (انظر ص ٥٢٢ من : (Handwoerterbuch des Islam) فقد كانوا هم المصدر الوحيد الذى تلقى منه الغرب معلوماته الأولى عن الإسلام ، وإليهم ترجع أغلب الأساطير التى شاعت في الغرب حول محمد صلى الله عليه وسلم في العصور الوسطى . ويعترف المستشرقون أنفسهم بأن البيزنطيين كانوا مصدرا غير موثوق به فيما يتعلق بالإسلام ، كما يعرض علينا ذلك بفانمولر في موضع آخر من هذا البحث .

نولدكه : -

وأما كتاب نولدكه[1] « تاريخ القرآن » فإنه يفى بكل متطلبات العلم . إنه كتاب عظيم القيمة لكل الذين يدرسون الإسلام ، ولكنه بالنسبة لغير المستشرقين كتاب شاق الاستعمال . أما كتاب « حياة محمد » لنفس المؤلف فإنه كتاب شعبى ومختصر ، وهو يقينا أفضل كتاب من هذا النوع ، ولكنه لا يستوفى سيرة النبى .

الكم والكيف : -

ومنذ أن مهد كل من موير واشبرنجر ونولدكه الطريق الصحيح لم يظهر كتاب واحد له قيمة إبداعية عن حياة محمد . وهناك عدد كبير من المؤلفين الذين قاموا بنهب مؤلفات هؤلاء العلماء بدرجات متفاوته في الفهم ، وعرضوها على الجمهور في صورة دراسات لا تحصى ، إما دون أى تغيير وإما باضافة شيء من عندهم . وهذا أحيانا ما يكون أكثر سوءا .

ويظهور المؤلفات المشار إليها نما عدد المواد المتوافرة لسيرة محمد . وقد أصبح من الميسور عن طريق الطباعة الاطلاع على نصوص عربية هامة بأعداد كبيرة . ومن مؤلفات العلماء الأوربيين يكفى أن نذكر هنا بكتاب جولدتسيهر[2] « دراسات محمدية » وكتاب فيلهاوزن[3] « لمحات وأعمال أولية » .

---

(١) تيودور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا للغات الشرقية في عدد من الجامعات الألمانية ، له انتاج غزير في مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربي واللغات السامية والدراسات الإسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » في هانوفر عام ١٨٦٣ .

(٢) اجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) مستشرق يهودى من أصل مجرى ، يعد من كبار أئمة الدراسات الإسلامية في أوربا . كان واسع الاطلاع غزير الإنتاج بلغات مختلفة . وقد عرف قراء العربية له كتابين هما : العقيدة والشريعة في الإسلام ، وتاريخ مذاهب التفسير الاسلامى .

(٣) فيلهاوزن (١٨٤٤ - ١٩١٨) مستشرق ألمانى ، له دراسات إسلامية عديدة منها : السيادة العربية ، والخوارج والشيعة ، والدولة العربية وسقوطها من ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية . وقد ترجمت هذه الكتب الثلاثة إلى العربية وله أيضا : محمد في المدينة ، والتمهيد للتاريخ الإسلامى في ستة أجزاء ، ودستور المدينة أيام النبى ، والأحزاب المعارضة في الإسلام قديما دينا وسياسة ، وغيرذلك من دراسات (المستشرقون ٢ / ٣٨٦ وما بعدها) .

وكل من يشعر لسبب أو لآخر أنه يتحتم عليه أن يكتب سيرة محمد من جديد لا يستطيع أن يقتصر اليوم على النظر إلى الأمور القديمة من زاوية جديدة ، وإنما يجب عليه أن يضيف شيئا جديدا إلى ما أتى به سابقوه .

وإلى هذا الحد كان العرض الذى قدمه سنوك هورجرونيه في عام ١٨٩٤ .

بيير مارتينو : -

يقدم لنا بيير مارتينو Pierre Martino نظرة تاريخية على بدايات سيرة محمد في فرنسا ، وذلك في بحثه عن « محمد في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر » ، وهذا البحث مأخوذ من كتاب كبير للمؤلف بعنوان « الشرق في الأدب الفرنسى في القرنين السابع عشر والثامن عشر » الصادر في باريس عام ١٩٠٦ .

وفي الفصل الأول من هذا البحث الذي جعل عنوانه « ما قبل القرن السابع عشر » يقدم مارتينو نظرة سريعة على رأى العصر الوسيط في محمد ، مترسما في ذلك خطا دانكونا Dancona وباسيه R . Basset ودوتيه[1] outte وقد كان للحروب المريرة بين المسيحيين والمحمديين في عصور الحروب الصليبية أثرها في عدم ظهور نظرة موضوعية عن النبى وأعماله . ففى الرواية التي كتبها ألكسندر دوبون A . du Pont عن محمد « Roman de Mohomem » يظهر محمد بوصفه أحد قطاع الطرق ،

(١) سيأتى الحديث فيما بعد عن كل من دانكونا وباسيه ودوتيه في نهاية هذا البحث .

وقـد أصابـه مس من الشيطان ويقـوم بفعل كـل نوع من أنـواع الأفعال الـدنيئـة والتضليل[1] .

أما كتاب القانون لدى المسلمين Livre de la loi au Sarrasin فإنه يتضمن تجميعا لأكثر خرافات المحمديين زراية . وحقيقـة الأمر هى أن مـا كان يعـرفه المـرء عن المسلمين كان شيئا قليلا مثل الوضوء وبعض الأشياء عن الصلاة وتعدد الزوجات . وقد كان ذلك تقريبا هو كل شيء . وقد كان هناك اعتقاد بأن محمدا قد أكلته الخنازير ذات يوم عندما كان مخمورا . وليس من العجيب إذن أن المحمديـين لا يشـربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير ! ولكى يجعل المرء من النبى المزيف شخصية مكروهة تماما فقد عمدوا إلى جعله بسذاجة بالغة مسيحيا سيئا ، أى زنديقا مارقا . أجل ، لقد جعلوا منه كاردينالا أسلم نفسه للشيطان ليأسه من أن يظفر بمنصب البابا ! وقد كان حكم العصر على شخصية محمد كلها هو الانغماس في المتع والخديعة[2] .

أما الفصل الثانى (من بحث مارتينو) الذى يحمل عنوان « الدراسات الإسلامية الأولى » فإنه يتناول بالبحث أولا كتاب ميشيل بوديه Michael Baudier « تاريخ

---

(١) سيأتى الحديث مرة أخرى عن هذه الرواية في موضع آخر من هذا البحث . ونود أن نشير هنا ـ كما سيذكر بفاتمولر فيما بعد ـ أن أساس هذه الرواية يتمثل في الأساطير التي روجها بعض الشعراء عن محمد ، والتي انتشرت في الغرب في العصر الوسيط . وهى أساطير من وحى الخيال ولا تعتمد على أية معرفة حقيقية بالإسلام ونبيه .

ويعترف بفاتمولر بأن ما كان يعرفه الناس عن المسلمين حينذاك لم يكن يتعدى أمورا قليلة مثل الوضوء وشيئا عن الصلاة وتعدد الزوجات ، فلا عجب أن جعلوا من محمد صلى الله عليه وسلم « كاردينالا » كان يطمع في منصب البابوية ثم انشق على الكنيسة لعدم حصوله على هذا المنصب ، وراح خيالهم المريض ينسج قصة غريبة حول وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولعل القارئ كان ينتظر منا أن نحذف مثل هذه الأباطيل ، ولكننا نحيل القارئ الكريم إلى ما كتبناه عن ذلك في مقدمة هذا البحث . ومن ناحية أخرى لابد لنا من التعرف على أسلوب تفكير الغرب نحونا في تلك العصور الوسطى التي كانت تعد بحق عصورا مظلمة The dark Ages باعتراف الغرب نفسه ، في الوقت الذى كانت فيه لدى المسلمين حينذاك حضارة مزدهرة وفكر راق وعلم متقدم ، فلعل في ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبر .

(٢) انظر الهامش السابق .

ديانة الأتراك ومولد وحياة ووفاة نبيهم المزيف محمد[1] » الصادر في (باريس) عام ١٦٢٥ (وقد أعيد طبعه عام ١٦٣٢ ، وعام ١٧٤١) وقد كان بودييه أول من قام بتأليف سيرة لمحمد بالفرنسية .

ثم تناول مارتينو بعد ذلك ترجمة دورييه[2] 5Du Ryer للقرآن .

أما الفصل الثالث الذى جاء بعنوان « التأثير الكبير لمحاربة الكاثوليكية للإسلام » فإنه يصف المحاربة والنقض المنظمين لمحمد من جانب كل من بسكال[3] وماراتشي

---

(١) لقد كان بودييه يهدف بكتابه - كما يقول هو نفسه - إلى « الكشف عن أباطيل ورذائل نبى الأتراك ، والكشف عن تضليله وتفاهة طائفته ووحشية تعاليمه المضحكة » .

فهل يمكن أن ينتظر أحد بعد ذلك أن يقول بودييه كلمة حق في محمد ؟ لقد كان كاثوليكيا متعصبا يستقى معلوماته - كما يقول بفانمولر - من المصادر الكنسية دون أدنى فحص أو تمحيص . وقد ساعد كتابه على حجب حقيقة الاسلام وحقيقة نبيه عن الأوروبين طوال القرن السابع عشر (انظر بفانمولر ص ١٦٨) .

(٢) تعد ترجمة دو رييه للقرآن التى ظهرت عام ١٦٤٧ أول ترجمة فرنسية للقرآن . وقد عمل دو رييه مدة طويلة قنصلا لبلاده في مصر ، وهناك تعلم العربية ، وقد طبعت هذه الترجمة مرات عديدة على مدى قرن ونصف ، وأقبل الناس على قراءتها إقبالا كبيرا . ولم يكن دو رييه منصفا للإسلام بأى حال من الأحوال . وقد ظلت ترجمته تمارس تأثيرها إلى أن قام سافارى Savary بانجاز ترجمة فرنسية أخرى للقرآن ظهرت عام ١٧٨٣ .

(٣) بليس بسكال Blaise Pascal (١٦٢٣ - ١٦٦٢) هو الفيلسوف الفرنسى المعروف ، وقد صدر كتابه : خواطر حول الدين Pens'ees Sur la religion في باريس عام ١٦٧٠ . وقد كان بسكال يرى في محمد العدو اللدود للكنيسة ، ولهذا كان حريصا كل الحرص على محاربته ، ففي كتابه السابق يتناول محمدا صلى الله عليه وسلم في تسع شذرات من بين الشذرات التي يضمها هذا الكتاب ، ويعقد في أحداها مقارنة بين محمد والمسيح يقول فيها : إن محمدا لم يجر التنبؤ بظهوره في العهد القديم في حين جرى التنبؤ بظهور المسيح ، ومحمد كان يقترف القتل في حين كان المسيح يدع أتباعه يقتلون ، ومحمد كان يحرم القراءة في حين كان الحواريون يأمرون بالقراءة ، ومحمد صادف نجاحا دنيويا في حين كان المسيح مغلوبا على أمره وانتهى به الأمر إلى الصلب . الخ . وكان بسكال يفتقد لدى محمد عدم إتيانه بالمعجزات ، كما أن تعاليمه لم تشتمل على أسرار (كما هو الشأن في المسيحية) ، وينكر بسكال على محمد الأخلاق « السيئة » التى أتى بها ، كما ينكر عليه تصوراته الحسية للجنة ، ويقول إنه لم يجد في هذا الدين سببا يحمله على قبوله لأنه دين ليس فيه أى أمارة من أمارات الحقيقة . (راجع بفانمولر ١٤٩) .

هذا هو بسكال الفيلسوف . والفلسفة تعنى البحث عن الحقيقة ، وتعنى التجرد التام والنزاهة والموضوعية ، وترفض التقليد وقبول الأحكام المسبقة . ولكن بسكال كان في موقفه من الإسلام ونبيه يفتقد كل هذه الصفات ، ويرهن على جهل فاضح وراح يتبنى الآراء الكاذبة السائدة حينذاك حول الإسلام ونبيه شأنه في ذلك شأن رجل الشارع ، فأساء لنفسه وللفلسفة وللحقيقة بصفة عامة .

وبريدو .

أما رد الاعتبار لمحمد ـ كما يتناول ذلك الفصل الرابع الذى يحمل عنوان « رد الفعل البروتستانتى والفكر الحر » ـ فقد كان عملا من أعمال القرن الثامن عشر .
فبعد العمل الذى قام به كل من هوتنجر ومونى Moni قاد كل من ريلاند وجانييه إلى نظرة أكثر موضوعية لشخص محمد وأعماله لدرجة أن الكونت بولا نفلييه رأى في محمد شخصية عبقرية ومشرعا وفاتحا عظيما .
وقد خصص المؤلف الفصل الخامس لموضوع « محمد في الأعمال المسرحية » وهنا يركز مارتينو على كل من ليساج[1] وفولتير .

وفي الفصل السادس الذي جاء بعنوان : « محمد والموسوعيون » يعرض مارتينو عمل فولتير « مقال عن العادات » وأعمال الموسوعيين .
ويختتم مارتينو هذا البحث الهام بالحديث عن ترجمة سافاري للقرآن ، ويأتي بعد ذلك ملحقان هما :
١ - المؤلفات الفرنسية الأساسية للقرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يتصل بالإسلام .
٢ - ترجمات القرآن في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

مينور :

أما مينور فإنه يقدم لنا في الفصل الأول من بحثه (محمد لدى جوته[2]) نظرة على تاريخ ما قبل محمد ، ويمس باختصار آراء العصر الوسيط في محمد ، ويعرض علينا أولا سلسلة من « خليط لا ترابط فيه » عن تركيا والأتراك ، يتضمن أشد الأخبار خرافة عن محمد وقرآنه مما هو منتشر على نطاق واسع . وقد استطاع جوته

(١) ألان رينيه ليساج (١٦٦٨ ـ ١٧٤٧) أديب فرنسى .
(٢) نشر مينور هذا البحث في ڤينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

في القرن الثامن عشر أن يطلع على آراء القرنين السابقين (في محمد) في تاريخ الأحداث لجوتفريد وفي المقالة المطولة في قاموس بايل .

وبعد ذلك يعرض علينا مينور تاريخ ترجمات الرآن وتاريخ طبعاته ، وفي حين أن الكنيسة الكاثوليكية قد أمرت بإحراق نسخ طبعة القرآن التي صدرت في البندقية عام ١٥٣٠ ، وفي حين أن البابا الكسندر السابع (١٦٥٥ - ١٦٦٧) قد منع طبع القرآن ، كما منع أيضا ترجمته ، فإن مضمون القرآن قد أصبح سهل المنال عن طريق الترجمة من الجانب البروتستانتي ، ولكن مع إضافة نقض مفصل للقرآن من وجهة النظر المسيحية . وقد أعاد ببلياندر - خليفة تسفنجلي[1] نشر الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن التي أنجزت عام ١١٤٣م بإيعاز من الأب بطرس الكلوني وذلك بعد أربعمائة عام من صدورها ، وأضاف إليها عديداً من الردود المفندة .

وقد توالت بعد ذلك الترجمات التي قام بها كل من شفايجر[2] ودورييه ويوهان لانجه ونريتر وماراتشي

وقد حدث تحول في الحكم على محمد عن طريق العلماء البروتستانت ، وبوجه خاص عن طريق ريلاند ، وقد أخذ جانييه موقفاً وسطاً بين الاتجاه اللاعن الذى تبناه كل من ماراتشي وبريدو من ناحية ، والاتجاه الممجد لمحمد والذي يمثله بولانفلييه من ناحية أخرى . وقد قص علينا جانييه حياة محمد بكل ما فيها من معجزات وأساطير باذلا قصارى جهده في استخدام مصادر جيدة ، وغالباً ما كان يقتبس منها حرفياً . وبعد ذلك بعامين (أي عام ١٧٣٤) ظهرت في انجلترا ترجمة إنجليزية للقرآن قام بها سيل ، وقد حظيت هذه الترجمة بتقدير فائق وسمعة طيبة في القرن الثامن عشر .

وبعد ذلك يعرض علينا مينور بالتفصيل صورة محمد في عصر التنوير : ويصادفنا هنا في عرضه أسماء كل من ليبنتز وليسنج وفولفنبوتلر المجهول

---

(١) أولريش تسفنجلي (١٤٨٤ - ١٥٣١) قطب الاصلاح الديني في سويسرا ، سقط قتيلا في الصراع ضد الكاثوليك .

(٢) قام سالمون شفايجر بانجاز هذه الترجمة الى الألمانية عن ترجمة ايطالية معتمدة أساسا على النص العربي . وقد ظهرت ترجمة شفايجر للقرآن في ثلاثة أجزاء في مدينة نورنبرج عام ١٦١٦ وام ١٦٢٣ .

وهاجيدورن وجلايم وتوربين ، وبصفة خاصة فولتير « بطل عصر التنوير » .

وهناك أيضا ترجمتان ألمانيتان للقرآن قام بترجمتهما من الأصل العربي مباشرة كل من ميجر لين[1] Megerlin وبويزن[2] Boysen وقد لقيتا حقهما من التقدير .

ويختتم مينور الفصل الخاص بما قبل التاريخ بالحديث عن جيبون Gibbon ، وهردر ، وأولزنر Golznor .

وبعد ذلك يتناول مينور بالتفصيل في الفصل الثاني شذرات فرانكفورت لجوته ، وفي الفصل الثالث يتناول رواية فولتير الدرامية عن محمد . وفي الفصل الرابع يتحدث عن الخطة في « الشعر والحقيقة » لجوته . ثم يتناول أخيرا في الفصل الخامس الفترة الشرقية الغربية ، وهناك هوامش مفصلة تقدم اشارات ببليوجرافية قيمة بالاضافة إلى ملحق يتضمن النصوص المتعلقة بمحمد من مؤلفات جوته[3] .

فولفل :

أما أدولف فولفل Adolf Fohluill فقد قام على نحو موفق بتكملة العرض الذي قدمه مينور ، وذلك في بحثه المفصل « ألمانيا والإسلام وتركيا »[4] .

---

(١) ظهرت هذه الترجمة في فرانكفورت عام ١٧٧٢ .

(٢) ظهرت ترجمة بويزن للقرآن في هاله بألمانيا عام ١٧٧٣ واعيد طبعها عام ١٧٧٥ .

(٣) جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) هو أعظم الشعراء الألمان على الأطلاق ، وقد كان منصفا للشرق والاسلام ونبيه ، قرأ القرآن بامعان في ترجمتين احداهما لاتينيه والأخرى ألمانية ، واقتبس منه الكثير ، ويظهر تأثره بالقرآن بوجه خاص في الديوان الذي أسماه « الديون الشرقي الغربي » . ومن بين ما نقرؤه له في هذا الديوان قوله : لله المشرق ولله المغرب ، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا . هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علوا كبيرا » .

وفي بعض أشعار الحكمة من ديوانه يقول عن الاسلام : « منم حماقة الانسان في دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه ، واذا الاسلام كان معناه التسليم لله فاننا أجمعين ، نحيا ونموت مسلمين » .

وقد وضع جوته مشروع تمثيلية عن محمد تدل على إعجابه وتقديره لنبي الاسلام ، مما يدلى على سعة أفقه وسمو فكره ونزاهة حكمه ، وترفعه عن التعصب الشعوبي والديني . (انظر مزيدا من التفصيل عن ذلك في كتاب : الشرق والاسلام في أدب جوته » للاستاذ عبد الرحمن صدقي ص ١٤ وما بعدها من سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٠) ٧

(٤) نشر هذا البحث في العدد رقم ٢٢ من مجلة أيفريون عام ١٩١٥ ، ص ١ - ٢١ ، وص ٢٢٥ - ٢٦٧ .

وفي فصل تمهيدي يتناول باختصار العلاقات السياسية بين تركيا والغرب عبر القرون . وبعد ذلك يصف لنا (في فصل آخر) الخطر التركي كما يصوره الشعر الألماني والدراما بصفة خاصة ، وذلك من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر ، وفي الفصل الثالث يتناول انخفاض درجة العداء ضد الإسلام بتأثير عصر التنوير والمصالح السياسية . وهنا يتناول فولفل النشرة العربية للقرآن التى قام بانجازها هينكلمان[1] ، كما يتناول أيضا الترجمات الألمانية الأولى للقرآن ، ويبين كيف أن العداء ضد الإسلام قد أخذ يضعف بالتدريج ويحل محله - في تزايد مستمر - حسن النية لدى مؤلفي عصر التنوير (هادريان ريلاند ، ليبنتز ، ليسنج . رايماروس) .

وفي الفصلين التاليين لذلك يقدم فولفل عرضاً مختصراً لتاريخ الإسلام في مرآة العلم والشعر أثناء عصر الكلاسيكيين لدينا ، وأثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهنا يقوم أولا - بناء على دراسات متخصصة - بتقدير نشاط المستشرق دافيد فريدريش ميجرلين : الفورتمبرجي (نسبة إلى مقاطعة بألمانيا) الذي يرجع إليه الفضل في القيام بإنجاز أول ترجمة ألمانية للقرآن على أساس النص العربي ، وبعد ذلك يصف لنا فولفل موقف شعرائنا الكبار - هردر ، وجوته ، وفيلاند ، وشيللر - من الإسلام ومن مؤسسه .

وبالإضافة إلى ذلك يتحدث فولفل عن النشاط التأليفي لكل من أولزنر وهامر بورجشتال[2] Bhorgesntal ، وقد كان لهذا الأخير عن طريق تأثيره على جوته فضل لا ينسى ، وقد حظيت بالتقدير ، بجانب « الديوان الشرقي الغربي » لجوته ،

---

(١) كان القس ابراهام هنكلمان من هامبورج هو اول من تجرأ على نشر النص القرآني بالعربية عام ١٦٩٤ وذلك بعد إحراق أول طبعة عربية كاملة للقرآن في أوربا عام ١٥٣٠ في البندقية بأمر البابا ، وبعد الحظر الذي قرره البابا الكنسدر السابع (١٦٥٥ ـ ١٦٦٧) والذي كان يقضي بعدم نشر أو ترجمة القرآن .

(٢) جوزيف فون هامر ـ بورجشتال (١٧٧٤ ـ ١٨٥٦) مستشرف نمساوى ، طوف في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان وايران وتركيا ، وأنشأ في فيينا مجمع العلوم ، وكان يحسن الكتابة بعشر لغات . له دراسات وافرة ولاسيما في تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام ! وقد حقق الكثير من النصوص العربية ونشرها وترجم بعضها الى الألمانية أو الانجليزية أو الفرنسية . أصدر في فيينا أول مجلة استشارقية متخصصة في أوربا هى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت من عام١٨٠٩ حتى عام ١٨١٨ . وأهم مصنفاته : تاريخ الدولة العثمانية في عشرة مجلدات بالألمانية ثم ترجم الى الفرنسية ، وتاريخ الآداب العربية في سبعة مجلدات . (المستشرقون ٢/٢٧٤ وما بعدها) .

الأعمـال الشعريـة المتعلقة بـالشرق لشعـراء من بينهم روكرت[١] Rokert وبـلاتـين[٢] Blaten وكذلك النشاط العلمي لكل من هامربورجشتال وجورج فريدريش داومر Daumer وعدد من المستشرقين الألمان .

أما الفصل السادس فقد خصصه فولفل لرواد العلاقات الجديدة بـين ألمانيـا وتركيا من أمثال مولتكه وكريستيان فريدريش فورم وفريدريش لست[٣] . أما الفصل الختامي فإنه يقدم نظرة سريعة على السياسة الألمانية والشعوب الإسلامية في بداية القرن العشرين .

هــاز :

إن ما أخذه هاز على عاتقه لم يكن هو عرض الصورة الحسية لمحمد عبر تحولات العصور[٤] - فالعرض التصويري للإنسان كان محرما بالنسبة للمحمديين - وإنما أخذ على عاتقه رسم الصورة الروحية للرجل كما صورت في رءوس الناس على مدى العصور . وذلك لأن أفضل سبيل - في رأي المؤلف - لتكوين حكم على محمد يتمثل في استحضار الأحكام الأساسية التى ذاعت خلال تحولات العصور وعبـر القرون عن هذا الرجل ذى الأهمية التاريخية .

وفى البداية يصف هاز مدى تباين الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه الذين كان يعيش بينهم[٥] ، وبعد ذلك يتحول هاز إلى الحديث عن الآراء التي تكونت عن محمد خارج العالم الإسلامي .

وعـلى رأس التفصيلات التي أوردهـا « هاز » نجـد تقديـراً لـدرامـا فـولتـير

---

(١) فريدريش روكرت(١٧٨٨ ـ ١٨٦٦) شاعر ألماني ، اهتم بالأدب العربي وعمل استاذا للغات الشرقيـة في إرلنجن وبرلين . له دراسات حول مقامات الحريرى ، وطرفه بن العبد ، وعمر بن كلثوم ، وامرىء القيس ، وديوان الحماسة لأبي تمام ، وقصيدة البردة لكعب بن زهير ، وقد ترجم الى الألمانية كثيرا من هذه الآثار الأدبية .

(٢) بلاتين (١٧٩٦ ـ ١٨٣٥) شاعر ألماني .

(٣) فريدريش ليست (١٧٨٩ ـ ١٨٤٦) من علماء الاقتصاد الألمان .

(٤) نشر هانز هاز بحثه عن محمد بعنوان « صورة محمد عبر العصور » في مجلة التبشير وعلم الأديان . العدد رقم ٣١ عام ١٩١٦ .

(٥) من المعروف ان هذا التباين في الحكم على محمد من جانب معاصريه ومواطنيه لم يظهر الا بعد بعثته ودعوته الى دين الله ونبذ عبادة الأصنام ، أما قبل البعثة فقد كان هناك اجماع على تقديره ، وشاع حينذاك وصفه بالصادق الأمين .

« التعصب أو محمـد النبي » ولمحة - عن انتصـارات الإسلام عـلى العالم المسيحي .

وبعد ذلك يقدم لنا (هاز) لمحة تاريخية مختصرة عن الجدل المسيحي ضد محمد وضد القرآن بدءا من يوحنا الدمشقي[1] حتى نهاية القرن السابع عشر . وفي أثناء العصر الوسيط كله ، وكذلك في القرنـين السادس عشر والسـابع عشر ، كـان الحكم على محمد حكما سيئاً إلى أبعد الحدود . إذ يوصف بأنه دجال ونبي مزيف ومؤسس طائفة[2] وتجسيد لشتى ألوان الرذائل والمنكرات .

أما رد الاعتبار لمحمد فقد جاء أولا من جانب مؤلفين بروتستانت ، وبصفة خاصة من جانب كل من هوتنجر ، وريلاند ، وسيل . وقد كان عصر التنوير والغليان على وجه الخصوص يولي شخصية محمد اهتمامـاً كبيراً . وهنـا يعرض (هاز) تصورات كل من فولتير وبايل وجيبون وليبنتز وليسنج وفولفنبوتلر المجهول وهردر وغيرهم ، ويسهب بصفة خاصة في عرض تصورات (جوته) عن النبي العظيم .

وأخيـراً جاء القـرن التاسـع عشر بعرض تـاريخي نقدي لحيـاة النبي العربي وأعماله ، وقد وضع حجر الأساس في هذا السبيل (فايل) بكتـابه عن سيـرة محمد ، وقد تبع ذلك في الستينات من القرن الماضي المؤلفات الكبيرة عن محمد لكل من (موير) واشبرنجر ونولدكه ، وقد سار على دربهم كل المتـأخرين من أمثال كريل وأوجست موللر .

---

(١) يوحنا الدمشقي (٦٧٦ - ٧٤٩ م) عالم مسيحي عاش في ظل الدولة الأموية وخدم في القصر الأموى ، ومن بين مصنفاته كتاب « محاورة مع مسلم » ، وكتاب « إرشادات النصارى في جدل المسلمين » .
(انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص ١٩) .

(٢) يعنى مؤسس طائفة منشقة على المسيحية .

وفي نهاية البحث يقدم (هاز) عرضاً قصيراً لأهم المؤلفات الحديثة عن محمد والإسلام . والأمر الذي له أيضا قيمة خاصة هو تلك الاقتباسات المطولة من المؤلفين المعنيين الذين ظهروا على وجه الخصوص ابتداء من القرن الثامن عشر بأعداد كبيرة .

تور أندريه :

يبحث تور أندريه[1] - على أساس من اطلاعه الواسع على المراجع الكثيرة - التصورات المتعلقة بشخص محمد في تعاليم طائفة المسلمين وعقيدتهم منذ البدايات الأولى حتى تكوين التقديس للنبي . وفي مقدمة دقيقة للغاية يتناول أندريه مسألة المكانة التي طالب بها محمد نفسه لشخصه في النسق الديني . فمن ناحية كان محمد يحس أنه ليس إلا مبلغاً للوحي الأهي الثابت المكتوب ومن أجل ذلك وضع شخصه في الخلفية على نحو يتسم بالخضوع .

ولكن التغيير غير المتوقع لظروفه الخارجية - وبصفة خاصة انتصاره في بدر - كان له تأثير قوى على وعي النبي باصطفائه ، وأخيرا أصبح الوحي الذي كان يظهر في البداية بوصفه تأثيراً من جهة عليا فوق التشخص دون أن يكون ذا صلة واعية بحياة النبي النفسية - أصبح بالتدريج يأتيه أيضاً مرتبطا بوعي عادي ، وهذا الارتباط جعل الوحي أخيرا واقعاً إلى حد ما تحت مراقبة نفسية . وهكذا وصل الأمر بالنبي بالتدريج إلى الحد الذي جعله يعتبر ما يبدو له من أفكار وقرارات على

---

(١) تور أندريه (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧) مستشرق سويدي ، عمل أستاذا للعلوم الدينية في جامعتي استوكهلم وأوبساله - ومن مؤلفاته : بحوث في الكنائس النسطورية في الحيرة واليمن وأثرها في الاسلام ، وله دراسات حول : القصص في الإسلام ، والصوفية ، والنصرانية والاسلام ، والاسلام عقيدة ووحى ، ومن هو محمد ؟
أما كتابه عن سيرة الرسول (شخص محمد في تعاليم وعقيدة أتباعه) فقد كان رسالته للدكتوراه التى تقدم بها الى جامعة استوكهلم عام ١٩١٧ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الايطالية والانجليزية والالمانية ، وهو الكتاب الذي يتحدث عنه بفانموللر هنا . (المستشرقون ٣/٣٣ ، بفانموللر ١١٣) .

أنها وحي الله ، ويتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلهما في مكانة واحدة[1] .

وقد بدا محمد أيضا متسامحاً إلى درجة معينة إزاء ما كان يقدمه له أصحابه من الاحترام أو التقديس الخرافي الذي كان يقدم في العصور القديمة للرجل القديس . وكنتيجة أخيرة للتطور الذى وصل إليه الوعي النبوي لدى محمد بتأثير من انتصاراته العظيمة نجد الاقتناع لديه بأن رسالته جاءت عامة للعالم كله ، وأن دينه قد قدر له أن يحقق النصر على كل الديانات الأخرى ، وأنه هو نفسه « خاتم النبيين » ، وأفضل الأنبياء وآخرهم ، وأنه كان مقصد تطور النبوة كله في حقيقة الأمر ، وعلى هذا النحو كان في وسع التقديس الذي نشأ فيما بعد للنبي أن يجد في

---

(١) لقد بدأ وعى محمد باصطفائه مع بداية بعثته والا لما استطاع أن يصمد هذا الصمود العجيب مدة ثلاثة عشر عاما في مكة يدعو فيها الى دين الله ، ومن منطلق وعيه التام باصطفائه وبأن ما جاء به هو الحق كانت قولته الشهيرة لعمه أبي طالب : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وهكذا نرى أن هذا الوعى بالاصطفاء لم يكن ـ أو لم يزدد ـ نتيجة ظروف خارجية « غير متوقعة » ، فقد كان واضحا جليا منذ اللحظة التى أمره الله فيها أن يصدع بدعوته ويعلن على الناس رسالته ، فخرج إليهم قبل انتصار بدر باثنى عشر عاما يقول لهم : « انا رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة » .

وعلى الرغم من هذا الوعى القوى بالاصطفاء ، فانه قد ظل حتى آخر لحظة يشعر بأنه ليس الا مبلغا رسالة ربه . وقد ورد تأكيد هذا المعنى في القرآن في اثنى عشر موضعا على الأقل نصفها مدنى والنصف الآخر مكى .

وقد كان الوحى منذ البداية مرتبطا بعلاقة واعية متيقظة بحياة النبى النفسية فقد روى البخارى في صحيحه عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » .

أما القول بأن الأمر قد وصل بالنبى الى اعتبار ما كان يبدو له من أفكار وقرارات وحيا من عند الله فهذا يعنى اتهام محمد بالكذب على الله اذ ينسب اليه ما لم يقله . وهذا كلام مردود لا سند له من الواقع . فمحمد صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة وبعدها هو الصادق الأمين الذي لم يجرب عليه أحد كذبا قط ، وكان قمة القمم في السلوك الفاضل الذي استحق به أن يمدحه الله في قوله : « وانك لعلى خلق عظيم » .

أما ان محمدا كان يتحدث عن الله ورسوله حديثا يكاد يجعلهما في مكانة واحدة فلعل (أندريه) يعنى هنا ما ورد في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ـ النساء : ٨٠ ـ ؛ وقوله « أطيعوا الله ورسوله » الأنفال : ٢٠ ـ ، وقوله « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » آل عمران ٣١ ـ ، وأمثال هذه الآيات كثيرة . ولكن المتكلم هنا هو الله لا محمد ، والله أيضا هو الذي كان يعاتب نبيه عندما كان يتخذ قرارا لا يكون هو القرار الأولى ، كما عاتبه في عبد الله بن أم مكتوم وفي فداء الأسرى .

الواقع أيضا نقاط ارتباط معينة في الشهادات الذاتية لمحمد[1] .

وفي الفصل الأول يصف أندريه نشأة « أسطورة محمد » وكيف كانت بصفة خاصة عملا من أعمال القصاص ، وهم أولئك الذين احترفوا مهنة حكاية الأساطير ، وتصادفنا آثار نشاطهم في كتاب ابن اسحق [2] . فحياة محمد كلها يتم نسجها هكذا بالتدريج في شبكة من المعجزات . ويبسط أندريه القول بوجه خاص في قصة ميلاد محمد والمعراج ومعجزات الطعام والماء ومعجزة الشفاء وشق الصدر وانشقاق القمر ، والمصدر الرئيسي لهذه المعجزات هو أساطير وأقاصيص دوائر

---

(١) لم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم لنفسه مكانة معينة ، ولم يقبل ان يقدم له احد تقديسا أو احتراما خرافيا أو غير خرافي ، فقد كان - على العكس من ذلك - يرفض مثل هذا اللون من التقديس . وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلم : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله » - رواه البخاري - وقد روى ابن ماجه عن ابن مسعود قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه فقال له : هون عليك فأنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » .

والقرآن يؤكد في العديد من آياته على بشرية الرسول . من ذلك قوله تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد » - الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦ ، وقوله « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » - الإسراء : ٩٣ .

أما اقتناع محمد بعموم رسالته لكل البشر فلم يكن ذلك نتيجة لانتصارات معينة ، بل كان ذلك الأقتناع من أول يوم صدع فيه بالدعوة حين خرج على الناس يقول لهم : « أنا رسول الله إليكم خاصة والى الناس كافة » - وعموم رسالته يعنى ختم النبوة ، فمن المعروف أن موسى عليه السلام قد أرسل إلى بنى إسرائيل فقط ، وأن عيسى عليه السلام قد أرسل إلى « خراف بنى إسرائيل الضالة » . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد أرسل الى الناس جميعا . وفي ذلك يقول - فيما يرويه البخاري ومسلم : « وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة » . فليس هناك إذن مجال لرسالة أخرى بعد أن أكمل الله الدين ورضى الاسلام دينا للعالمين : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » - المائدة : ٣ - ؛ والدين عند الله بصفة عامة هو الاسلام « إن الدين عند الله الإسلام » - آل عمران : ١٩ .

ولكن نسخ الاسلام للشرائع السابقة لم يجعل محمدا يقلل من شأن الأنبياء السابقين عليه فكلهم من نفس النبع اغترفوا ، وفي هذا الصدد يقول القرآن : « لا نفرق بين أحد من رسله » - البقرة ٢٨٥ - ، وقد روى البخاري ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تخيرونى على موسى » .

(٢) ابن اسحق : هو أبو عبد الله محمد ، توفر على جمع الأخبار والقصص المتعلقة بحياة النبى صلى الله عليه وسلم ويظهر أنه قام بتدوين سيرة النبى في كتابين أولهما : كتاب المبتدأ أو « كتاب المبدأ وقصص الأنبياء » ويتضمن تاريخ النبى حتى الهجرة ، وثانيهما هو كتاب « المغازى » وقد عرف ابن هشام كتاب المغازي عن طريق تلميذ مباشر لأبن اسحق هو زياد بن عبد الله الكوفي ، وقد جمع ابن هشام كتابى ابن اسحق وهذبهما كثيرا في مواضع معينة واستخلص منهما « كتاب سيرة رسول الله » وقد أخرج الكتاب في صورته الحالية في القرن الرابع الهجرى الوزير المغربى ، وشرحه السهيلي المتوفى عام ٥٠٨ هـ . اما ابن اسحق فقد توفى في بغداد حوالي عام ١٥٠ من الهجره . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية) .

الحضارة الهللينية[1] . وبعد مضى بعض الوقت (على أعمال القصاص) ظهرت مؤلفات حول معجزات محمد ، وقد حظيت هذه المؤلفات أيضا بعرض تفصيلي من جانب أندريه .

أما الفصل الثاني فإنه يصف المحاولات التي قام بها العلم المختص بالعقيدة لمناقشة هذه المعجزات التي استقرت في عقيدة الشعب . وتشكل تعاليم عصمة النبي محتوى الفصل الثالث . وقد تزايد باستمرار تبرئة شخص محمد من كل الأخطاء وتحرير أفعاله من كل ما يمكن أن يكون مثارا للنقد[2] . وفي الفصل الرابع الذي جاء بعنوان (شخص محمد والسنة) يظهر محمد أيضا بوصفه المثل الأعلى لكل مجالات الحياة الأخلاقية . وقد كان لصورته المثالية قوة تأثير عظيمة لدى الصوفية .

أما الفصل الخامس الذي يحمل عنوان (شخص النبي والتقوى) فإنه يصف المكانة التي يتمتع بها النبي بوصفه شفيعاً أو وسيطاً بين المذنبين من الناس والرب الرحيم ، وأخيرا يتناول الفصل الأخير موضوع (نشأة تقديس النبي) وكيف تم تكوينه بصفة رئيسة عن طريق الصوفية بتأثير شيعي ، وقد تسرب أيضا مفهوم الوحي وكذلك تعاليم الوجود السابق والعقل (اللوجوس) إلى الإسلام السني بالتدريج بتأثير شيعي ، ويعد محمد المنفذ الوحيد للقدرة الألهية ، أجل ، إنه يعد

---

(١) تروى الكتب المسيحية الأوربية المؤلفة عن حياة القديسين المسيحيين ألوانا شتى من الأقاصيص والغرائب وخوارق العادات وعجائب الأمور التى حدثت على أيدي هؤلاء القديسين ، ويستكثر أندريه على محمد النبى أن تحدث له مثل هذه المعجزات ، ويسارع بردها الى الحضارة اليونانية ! فأي منطق هذا ! وكيف وأين اتصل هؤلاء « القصاص » الذين يروى عنهم ابن اسحق هذه المعجزات ـ بالحضارة اليونانية ؟

(٢) ليس هناك محاولة مصطنعة من جانب علم الكلام لتبرئة النبى عليه الصلاة والسلام من كل الأخطاء . فان من لوازم النبوة بالضرورة وجوب الاعتقاد في أمانة النبى في تبليغ ما أمره الله بتبليغه ، وعصمته من كل ما يشوه سيرته ، وهذه من الصفات التى يجب أن تتوافر في كل الأنبياء . وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم خير شاهد على ذلك .ومن ناحية أخرى فإن الأنبياء يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من أفراد البشر من الأمور التى لا تخل بمقام الرسالة ، فهم يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا عاقة له بتبليغ الاحكام ، وتمتد اليهم أيدي الظلمة ومن المحن الاضطهاد . وقد تكفل علم الكلام بتفصيل القول في ذلك وفي غيره من أمور الاعتقاد .

في النهاية المثل الأعلى لكل المتصوفة الذين تربطهم بالنبي علاقة تقديس مفعم بالحب[1] .

وقد أغفل أندريه تماما الشعر المعاصر لمحمد والفترة المبكرة للإسلام . ويشير جوزيف هوروفيتس[2] إلى هذا المجال في مقالته التي تحدث فيها بإسهاب عن كتاب أندريه في مجلة « الإسلام » (مجلد ١١ من عام ١٩٢١ ص ٢٧٧ - ٢٨٣) .

---

(١) سبق أن أشرنا الى ان اجلال المسلمين للنبى صلى الله عليه وسلم لا يخرجه عن اطار البشرية ، وهو اجلال يقف عند حدود ما رسمه القرآن الكريم . أما التأثيرات الدخيلة التى يرى أندريه أنها تسربت الى الاسلام بتأثير شيعي فنود هنا أن نؤكد أن الاسلام - بمصدريه القرآن والسنة الصحيحة - لا يتحمل تبعة اية افهام تنحرف بتعاليمه خارج اطار هذين المصدرين اللذين لم يمتزجا أو يتأثرا في يوم من الأيام بأية تيارات دخيلة من أى نوع وفي أى شكل . وهذه ميزة فريدة يمتاز بها الاسلام عما عداه من أديان سماوية اختلط فيها الدخيل بالأصيل لدرجة الأمتزاج التام .

ولست ادرى ماذا يقصد أندريه بجعله مفهوم الوحى ضمن العناصر التى دخلت الى الاسلام « السنى » بتأثير شيعي . فالمعروف أن مفهوم الوحى مفهوم قرآنى خالص يعرفه المسلمون قبل ظهور مفاهيم الشيعة والسنة وغيرها .

أما أن محمدا صلى الله عليه وسلم يعد المثل الأعلى للصوفية الذين تربطهم بالنبى علاقة مفعمة بالحب فنود أن نؤكد هنا أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى لكل المسلمين وليس للصوفية فقط . فالله سبحانه وتعالى قد جعله « أسوة حسنة » للجميع يترسمون خطاه ويسيرون على هديه (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) الاحزاب ٢١ . وقد امتدحه الله في قوله « وانك لعلى خلق عظيم » وأمر الله المسلمين جميعا بالصلاة عليه اقتداء بربهم وملائكته في ذلك (ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) - الاحزاب : ٥٦ .

والمسلمون جميعا - وليس الصوفية فقط - تربطهم بنبيهم علاقة حب غامر يجل عن الوصف . وينطلق هذا الحب من القرآن نفسه الذي ربط بين اتباع النبى ومحبة الله (ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) - آل عمران : ٣١ ، وقد جعل القرآن جميع ألوان الأهتمامات الدنيوية التى يمكن أن تكون محورا للحب في كفة وحب الله ورسوله في كفة اخرى . وفي ذلك يقول الله تعالى : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين » - التوبة : ٢٤ .

وهذا الحب الغامر يتمثل بصورة جلية في القصة التالية :

أسر المشركون زيد بن الدثنة وساقوه الى ساحة القتل ، وهناك سأله أبو سفيان - والرمح موجه الى بطن زيد ليغرس في أحشائه - أنشدك بالله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك سالم في أهلك ؟ فأجابه زيد : « والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس في أهلي » ، وهناك قال ابو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كما يحب أصحاب محمد محمدا .

(القصة منقولة عن مقال لفضيلة الشيخ محمد الغزالي بمجلة الدوحة مارس ١٩٨٤ م) .

(٢) جوزيف هوروفيتس (١٨٧٤ - ١٩٣١) مستشرق ألماني ، كان أستاذا للعربية في جامعة عليكره بالهند ، ثم في جامعة فرانكفورت بألمانيا . له دراسات عديدة في الاسلام والأدب العربي ، نشر أو اشترك في نشر العديد من المؤلفات العربية ، وترجم بعضها إلى الأنجليزية أو الالمانية .

شفاللى : ـ

وأخيرا يقدم لنا شفاللى[1] لمحة قصيرة عن البحوث المسيحية لحياة محمد في المجلد الثاني من الطبعة التي قام بإعدادها من جديد لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » (ص ١٩٨ ـ ٢٠٨) وذلك تحت عنوان : « السير المسيحية للنبى » وطبقا للتحول الذي طرأ على الحكم على المأثورات العربية (قارن ص ١٩٣ ـ ١٩٨ : نقد المأثورات) يقسم شفاللى المؤلفات الغربية عن حياة محمد إلى ثلاث فترات (على النحو التالي) : ـ

١ ـ السيادة المتصلة للتقاليد الموروثة حتى منتصف القرن التاسع عشر (شبرنجر) .

٢ ـ عصر بداية النقد لأجزاء منفردة من الموروثات .

٣ ـ عصر النقد المنهجى للموروثات جميعها .

أما الفترة الأولى فتمتد من العصر الوسيط كله حتّى منتصف القرن التاسع عشر . وهنا يشير باختصار إلى كل من هوتنجر وماراتشى وريلاند ، وبعد ذلك يتناول بتفصيل أكثر كلا من جانييه وكوسان دى برسيفال وجوستاف فايل . أما الفترة الثانية فيذكر منها الأسماء التالية : شبرنجر وموير ونولدكه ودوزى وكريل ورانكه وأوجست ميللر وجريمه وبول ومرجيليوث . وأما الفترة الثالثة التي نعيش

---

(١) فريدريك شفاللى (١٨٦٣ ـ ١٩١٩) مستشرق المانى ، تتلمذ على نولدكه . قام بنشر كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى في ثلاثة مجلدات (جيسن ١٩٠٢) وعنه طبع في القاهرة ، اشترك في نشر الطبقات لابن سعد . أعاد طبع « تاريخ القرآن » لنولدكه بعد تحقيقه والتعليق عليه في مجلدين ـ ليبتزيج ١٩٠٩ ـ ١٩١٩ . ـ (المستشرقون ٢/٤١٠) .

في بداياتها فينتمى إليها بصفة خاصة الكتاب الضخم الذي قام بتأليفه ليونى كيتانى[1]. Leone Caetani

(١) الامير ليونى كايتانى (١٨٥٩ - ١٩٢٦) مستشرق ايطالى ، كانت لديه ثروة طائلة أنفقها على العلم والرحلات واقتناء الكتب والمخطوطات النفيسة ونشر مؤلفاته حتى أفلس في النهاية . ومن مؤلفاته : دراسة التاريخ الشرقى ، فى عدة مجلدات (ميلانو ١٩١١ وما بعدها) وقد خصص منها مجلدا لسيرة الرسول . وله أيضا : حوليات الإسلام في حوالى ستة مجلدات (ميلانو ١٩٠٥ - وما بعدها) . وقد أنفق على ثلاث بعثات لمناطق الفتح لرسمها جغرافيا وطبوغرافيا ، وجمع المصادر من اللاتينية والسريانية والعربية ، وتناولها بالنقد والتحليل لتحقيق أخبار المصادر العربية التي لم تنشر بعد ، وتحديد ما ينبغى الرجوع اليه منها لمعرفة كل حادثة . وكان يعد بالاشتراك مع جوزيبى جابر يبلى معجم الأعلام عن شخصيات العالم الإسلامى الذي كان ينتظر أن يقع في ٣٥ مجلدا ، ولكن الموت حال بينه وبين إتمام هذا العمل فوقف عند الجزء الثانى منه . (انظر أيضا « المستشرقون » ١/ ٤٢٩ وما بعدها) .

أسطورة محمد في العصر الوسيط

كواريسميوس : -

لقد كانت المحاولة الأولى لتناول أساطير العصر الوسيط عن محمد هى تلك التي قام بها كواريسميوس في صورة مختصرة (قارن أيضا دراسته حول مولد محمد وتطوره والعصر الذي عاش فيه) :

De ortu, progressu et tempore quo floruit Mahomet)

ولكن هذه المحاولة ظلت محاولة فردية تماما . وفي القرن التاسع عشر بدأ المرء يوجه قدرا أكبر من الاهتمام للتصورات العديدة التي تكونت في العصر الوسيط عن محمد .

رينو : -

وقد صاغ رينو في نشرته لرواية محمد[1] المهمة المطروحة في هذا الصدد أمام العلم في قوله : « إنه لمن الأمور ذات الفائدة أن تكون هناك قائمة دقيقة وكاملة عما كتب في صورة متتابعة حول موضوعات هامة من جانب مختلف الطوائف المسيحية . فبوسع المرء أن يلحظ في ذلك الأثر البطىء والحتمى لفعل العصور والأحداث والأماكن ، وبوسعه أن يلاحظ التأثيرات المختلفة التي تحدثها المعتقدات الخاصة والوضع الأخلاقى والسياسى والجوانب الحضارية المتقدمة أو المتخلفة » .

(١) صدرت هذه الطبعة في باريس عام ١٨٣١ ، والرواية في الاصل منسوبة إلى الكسندر دو بون من القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد رسم رينو باختصار بعض خطوط هذه الصورة . وفي البداية يقدم لنا لمحة عن التصورات التي اتخذها المرء عن شخص محمد وحياته بدءا من العصر الوسيط حتى عصر بايل وجانييه وجيبون . وبعد ذلك يتناول المؤلفات العديدة للمجادلات التي جرت حول ديانة محمد في الشرق والغرب ، ويقدم لنا باختصار بعض الخصائص المميزة لبعض هذه المؤلفات .

زيوليكى : -

ونظرا لأن طبعة « رواية محمد » لرينو وميشيل كانت قد نفدت فقد قام زيوليكى Ziolecki بنشرها من جديد[1] وأضاف اليها مقالة بعنوان « بحوث حول أسطورة محمد في العصر الوسيط » .

إدلستان دو ميريل : -

أما أساس « رواية محمد » لالكسندر دو بون A. du Pont فإنه يتمثل في « الأساطير الشعرية عن محمد » Otia de Mahomete لفالتيريوس Waltherius أو جوتييه الكومبينى[2] . وقد نشرها أول مرة إدلستان دو ميريل في كتابه : الأشعار الشعبية اللاتينية في العصر الوسيط » .

وقد أجمل الناشر في مقدمته لها بعض الخطوط المميزة لأسطورة محمد في الغرب والشرق . وقام بروتس بإخراج ونشر « أساطير محمد الشعرية » نفسها اعتمادا على مخطوطة أخرى وتناولها بإسهاب .

---

(١) صدرت هذه الطبعة في أوبلن Oppeln عام ١٨٨٧ .

(٢) نسبة إلى مدينة كومبين Compiegne الفرنسية .

دى لينسى :-

ويقدم لنا ليرو دى لنسى[1] Lincy بعض النماذج من أسطورة محمد في العصر الوسيط من أمثال ما ورد في تاريخ الأسقف تربين[2] ، و-« المرآة التاريخية » من تأليف فينسنس فون بوفيه ، وقصيدة الثعلب البغيض le Renard Contrefait والكتاب الذي ألفه اليهودى المتنصر الفونس المنتسب إلى اسبينا Spina بعنـوان Fortalitium Fidei .

جاس :-

أما جاس[3] فإنه يقدم لنا في البداية لمحة قصيرة عن الجدل المسيحى لكل من الغرب والشرق ضد محمد وضد تعاليمه ، هذا الجدل الذي يرى أنه يشكل القسم الرئيسى الثاني لدفاع الكنيسة المسيحية الموجه نحو الخارج .

وفي قسم ثان يصف التقاليد المسيحية فيما يتصل بحياة محمد وشخصه ، نظرا لأن الكتاب المحدثين لسيرة محمد من أمثال جانييه وتربين وأيضا فايل قد اعتمدوا في الغالب على أبى الفداء[4] وعلى مصادر شرقية أخرى .

---

(١) صدر كتاب دى لنسى في باريس عام ١٨٣٦ بعنوان : كتاب الأساطير .

(٢) صدر كتاب تربين بالفرنسية حوالى عام ١٧٧٣ بعنوان : تاريخ محمد مشرع العربية .

(٣) الكتاب الذي يعرضه بفاتمولر هنا من تأليف جاس هو كتاب : « الأرسطيـة والأفلاطـونية في الكنيسـة اليونانية ، مع بحث حول معارضة الإسلام في العصر الوسيط » وقد صدر في برسلاو عام ١٨٤٤ .

(٤) أبو الفداء : هو اسماعيل بن على الأيوبى ، سليل أحد فروع الدولة الايوبية في مصر . ولد عام ٦٧٢هـ بدمشق ، تولى إمارة حماة ، وكان له نشاط علمى ملحوظ ، وقـد اشتهر بـوجه خـاص بوصفـه مؤرخا وجغرافيا . وأهم مؤلفاته كتابه « مختصر تاريخ البشر » وكتابه في « تقويم البلدان » وقد تناول في الكتاب الأول تاريخ ما قبل الإسلام ثم تاريخ الإسلام حتى عـام ٧٢٩هـ . وقد طبـع هذا الكتـاب في مجلدين بالقسطنطينية عام ١٢٨٦هـ وترجمت أجزاء منه إلى اللاتينية والفرنسية والانجليزية . أما كتابه في « تقويم البلدان » فقد انتهى من تأليفه عام ٧٢١هـ .

وبعد ذلك عرض في القسم الثالث إلى الخامس تعاليم محمد والإسلام في مقارنة متواصلة بالتعاليم المسيحية وبصفة خاصة ما يتصل بالله والمسيح وتجسد المسيح والأسرار المقدسة والصلاة والصوم وفعل الخير والحج والقدر . أما الفصل الختامى فإنه يشتمل على « وجهات نظر حول القضاء والقدر » .

بروتس : -

وقد كانت أكثر الأعمال استفاضة من جانب بروتس Prutz في تناوله لموضوع « تصورات العصر الوسيط المسيحى عن محمد وتعاليمه » وذلك في الفصل الخامس من الكتاب الأول من مؤلفه « التاريخ الحضارى للحملات الصليبية »[1] ويبرز بروتس في بادئ الأمر مدى قلة المعلومات الصحيحة عن الإسلام التى تم الحصول عليها من خلال الاتصال الذي حدث عن قرب بين الإسلام والمسيحية سواء في أسبانيا أو في فلسطين أو في سوريا . فالمحمديون والمسيحيون يواجهون بعضهم بعضا بعد فترة طويلة من التعارف المتبادل وهم في حالة من انعدام الفهم مثلما كان الأمر لدى الاتصال الأول . فالصورة التى اتخذها المسيحيون في الغرب عن محمد وتعاليمه أصبحت كلما مر الزمن ازدادت كدورة عن طريق أسوأ الخرافات ، وفي النهاية شوهت تماما عن طريق أسخف التصورات الجنونية وأخبث الافتراءات .

وقد كان السبب الرئيسى لذلك هو أنه لم يكن هناك من سبيل إلى معرفة الإسلام إلا عن طريق السلطات الكنسية التي كان يهمها بطبيعة الحال أن تعرض تعاليم محمد في صورة منحطة وفاسدة بقدر الإمكان ، في حين أننا لم نكن نتوقع حكما موضوعيا نسبيا إلا من جانب أولئك الذين عاشوا لسبب من الأسباب فترة طويلة في سلام في وسط العالم المحمدى ، وبوجه خاص من جانب بعض المبشرين من أمثال فيلهلم الطرابلسى وريكولدوس دى مونت كروتسيس .

(١) صدر هذا الكتاب في برلين عام ١٨٨٣ . ولبروتس أيضا بحث بعنوان : « حول أساطير محمد لجوتييه الكومبيفى » من منشورات أكاديمية العلوم في ميونيخ عام ١٩٠٣ .

وبعد هذه الملاحظات التمهيدية يصف لنا بروتس أولا آراء الغرب في محمد وفي تعاليمه . فبعد المحاولة التي قام بها اليهودى الأسبانى المتنصر بتروس الفونسوس لنقض القرآن في بداية القرن الحادي عشر ، تناول هـذا العمل بتعمق خـاص بطرس الموقر رئيس رهبان كلونى[١] Cluny الذي كـان صديقـا للقديس بـرنهارد المنتسب إلى كليرفو Clairvaux . وقد عمل بطرس الموقر في البداية على إنجاز ترجمة للقرآن إلى اللغة اللاتينية[٢] . وبالإضافة إلى ذلك أمر بترجمة كتابين آخرين أحدهما عن سيرة النبى والثاني عرض للنقاط الأساسية في تعاليم العقيدة المحمدية في شكل حوار .

وأخيرا قام بتأليف أربعة كتب « ضد الزندقة البغيضة لطائفـة المسلمين » . وهذه الأعمال التي قام بها هذا الرجل الكلونى المتحمس لا ترسم مجرد بداية الجدل الأوروبى ضد الإسلام فحسب ، بل أصبحت المصدر الرئيسى أيضا للتصورات غير المعقولة التي صارت فيما بعد مألوفة لدى المسيحين عن حياة محمد وتعاليمه . وإلى مؤلفات بطرس الموقر ترجع غالبية المؤلفات الجدلية العديدة التي نشأت في العصر الوسيط ضد الإسلام ، سواء كانت نثرا أو في شكل شعرى أو في صيغة أخبار وتقارير حول المناقشات التي جرت ـ زعما كان ذلك أو حقيقة ـ بين رجال الدين المسيحيين والمحمديين . وفي هذه المناقشات يظهر محمد ليس فقط نبيا زائفا ومضللا ، وإنما أيضا محتالا وضيعاً ومن عشاق اللذة[٣] .

ومن بين التصورات التي كانت منتشرة بصفة خاصة القول بأن المحمديين لم يكونوا يجلون محمدا لمجرد كونه نبيهم ومؤسس دينهم بل كانوا يعبدونه بوصفه يمثل

---

(١) بطرس الموقر (١٠٩٤ ـ ١١٥٦) راهب فرنسى ينتمى إلى جماعة الرهبانية البندكتية التي شيدت دير كلونى عام ٩١٠ في فرنسا . قصد الأندلس فيمن قصدها مستزيدا من علومها ، وكان الرهبان الأسبان قد جعلوا من دير كلونى في القرن الثاني عشر مركزا خطيرا لنشر الثقافة العربية .

(٢) تمت هذه الترجمة عام ١١٤٣م على يد العالم الانجليزى روبرتِ أوف كيتون بإيعاز من بطرس الموقر .

(٣) إذا كان هناك قدر كبير من هذا الهراء يعود في أصله إلى أباطيل الأب بطرس « الموقر » فلست أفهم سببا معقولا لوصفه بالموقر ، إذ أن ما قام به ـ من وجهة نظر موضوعية ـ هو افتئات على الحقيقة وجريمة في حق التاريخ وتضليل متعمد وكذب صريح . فهل يبقى بعد ذلك مكان لوصفه بالتوقير والاحترام ؟ .

الألوهية . وبالإضافة إلى ذلك وُصِف دين محمد ـ على النقيض تماما من الحقيقة التاريخية ـ بأنه دين الشرك وتعدد الألوهية . وقد اتهم المحمديون أيضا ـ دون سند تاريخى ـ بأنهم يمارسون عبادة التماثيل بطريقة فظة ، وكذلك كان المرء يهزأ من أمية النبي ويسخر من الراعى السابق للإبل والحمير[1] .

ولابد أن يعود هذا الجهل التام وسوء التقدير للإسلام ـ رغم الاختلاط الكثير المباشر ـ إلى حد ما إلى أن التعرف الأول على الإسلام قد تم عن طريق وساطة لا يوثق بها إلا قليلا ، أعنى عن طريق البيزنطيين .

وترجع أقدم التقارير التاريخية التي لدينا عن نشأة الإسلام إلى تيوفانس البيزنطى . وقد عرضه أمين المكتبة الرومانى أناستاسيوس في كتابه عن تاريخ الكنيسة . وإلى هذا التقرير ترجع غالبية الأساطير التي قيلت عن محمد في العصر الوسيط .

وبعد ذلك قدمت الحملات الصليبية دافعا جديدا . ومن هنا اتخذت صورة محمد باستمرار لونا أشنع من ذى قبل . وعرضت باستمرار بصورة أكثر فظاعة . ويقدم لنا أولا جيبير النوجنتى Guibert de Nogent Sous-Coucy صورة شاملة . وكثيرا ما عرضت أسطورة محمد أيضا فى صورة شعرية ، وهكذا قام هيلديبرت المنتسب إلى ليمو Lemans والذى كان فيما بعد رئيسا لأساقفة تور Tours (توفى عام ١١٣٣ م) قام بكتابة تاريخ محمد فى صورة شعرية معينة Distichen تتضمن ذكريات كلاسيكية وقد ظهرت فيما بعد قصيدة مشابهة وهى « أساطير محمد لدى

---

(١) لسنا في حاجة إلى التعليق على هذه التصورات الباطلة ، فهى ـ كما يقول بفانموللر ـ تصورات تناقض الحقيقة التاريخية وتفتقد أى سند تاريخى . وقد كان البيزنطيون ـ كما يقول بفانموللر بعد قليل ـ هم أول من أذاع في الغرب معظم الأساطير التي شاعت حول محمد والإسلام .

ويبقى أن نشير إلى أن أمية محمد عليه الصلاة والسلام والتي أشار إليها القرآن في آيات عديدة كانت من دعائم الإعجاز ، فهى مناط فخر وبرهان صدق على دعوته لامثار سخرية واستهزاء . أما رعيه صلى الله عليه وسلم للإبل أو الغنم فلم يكن في ذلك بدعا من الرسل ، فقد مارسوا جميعا رعى الغنم وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم » ـ رواه البخارى ـ ويقول أيضا : « كنت أرعى غنم أهلى » ـ رواه الترمذى ـ وليس في ذلك سبة أو منقصة كما يفهم الجاهلون بقدره وقدر الأنبياء جميعا .

فالتيرى Otia Walteri de Mahomete وعلى هذه القصيدة اللاتينية تعتمد اعتمادا تاما رواية محمد Roman de Mahomet التى كتبها الكسندر دو بون du Pont .

وفى العرض الذى قدمه لنا أندريا داندولو الفينيسي تتجمع عناصر الأساطير البيزنطية عن محمد ، مع الاختراعات التى يجب ان توضع على حساب خيال المحاربين الصليبيين وعلى حساب قادتهم الروحيين .

ونحن نجد التجميع الكامل لكل ما يتعلق بمحمد من أساطير وخرافات ومخترعات افترائية للعصر المسيحي الوسيط فى كتاب فينسينز Vincenz (المنتسب إلى بوفيه) Beauvais والمسمى « المرآة التاريخية Speculum historiale

وهناك حكم أكثر موضوعية إلى حد بعيد عن محمد والإسلام نجده لدى الراهب الواعظ فيلهلم الطرابلسي الذى يبدو أنه قد اغترف كثيرا من المصادر الشرقية ، وفى وسعه أيضا أن يطلعنا على معلومات هامة حول نشأة القرآن .

أما جيرهارد الاشتراسبورجى[1] الذى ذهب إلى صلاح الدين فى عام ١١٧٥ م بتكليف من القيصر فريدريك الأول - فإن التقرير الذى وضعه حول أخلاق وعادات المحمديين يبرهن ليس فقط على ملاحظات جيدة ، بل يبرهن أيضا على حكم متسامح وموضوعى .

وهناك حكم أكثر تسامحا وموضوعية نجده فى العرض المسهب لعقيدة المحمديين وحياتهم وأخلاقهم نذكره بالفضل للراهب الواعظ ريكولدوس دى مونت كروسيز Recoldus de Monte Crucius الذى كان له نشاط فى نهاية القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ،والذى عاش سنوات طويلة مبشرا بين المحمديين ولكن مثل هذه الأحكام والمعارف تصادفنا منفردة نسبيا فى العصر الوسيط .

وعلى العموم فإن فى وسع المرء أن يدعى « أن الكفاح المرير الذى قاده العصر المسيحى الوسيط بالسلاح وبالجدل اللاهوتى ضد تعاليم محمد وضد اتباعه ، قد تم دون أية معرفة كافية بالخصم ودون أية فكرة عن ماهيته وطبيعته : فالإسلام الذى انطلق العصر المسيحى للقضاء عليه لم يكن له وجود فعلى فى يوم من الأيام » .

---

(١) نسبة الى مدينة اشتراسبورج الفرنسية .

تلك كانت الخطوط الرئيسة للعرض المسهب الذى قدمه بروتس ، هذا العرض الذى كان ينبض بالحيوية عن طريق الاقتباسات الوافرة من المؤلفين المعنيين والذى اكتمل بالأسانيد المصدرية المفصلة وبالأدلة .

دانكونا :

تمثل بحوث دانكونا D'Ancona المسهبة تكملة ممتازة لعمل بروتس وقد قادته دراساته المقارنة فى الآداب الرومانية إلى طرح سؤال حول نوع المعرفة التى كانت لدى القرون المختلفة عن سيرة محمد[1] .

وعلى أساس من اطلاعه الشامل رسم لنا دانكونا صورة لأسطورة محمد فى العصر الوسيط ، تلك الصورة التى عرض شوفان بعض خطوطها ببراعة فائقة فى مؤلفه الببليوجرافى(قارن أيضا النقد المفصل لرينان فى مجلة العلماء Journal des Savants ١٨٨٩ م ص ٤٢١ - ٤٢٨)

ويتناول دانكونا على وجه الخصوص التأثيرات المسيحية على محمد (الراهب بحيرى)[2] والأخبار المختلفة حول وفاة محمد ، ويبين دانكونا الوحدة المميزة لهذه الأساطير منذ زمن المؤرخ البيزنطى تيوفانس وطبقا لهذه الأساطير يظهر محمد على

---

(١) يرجع في ذلك إلى البحث الذي نشره دانكونا في العدد رقم ١٣ من المجلة التاريخية للآداب الايطالية بعنوان « أسطورة محمد في الغرب » من ص ١٩٩ إلى ٢٨١ ، عام ١٨٨٩ .

(٢) بحيرى : راهب نصرانى ، كانت له صومعة في بصرى من أعمال الشام على طريق القوافل ، وقد مر به محمد صلى الله عليه وسلم وهو في سن الثانية عشرة من عمره مع عمه أبي طالب ، فعرفه ببعض ملامحه وقال « سيكون لهذا الغلام شأن عظيم » وأوصى عمه بحمايته .

ويصر بعض المستشرقين على تضخيم أثر مقابلة الرسول عليه الصلاة والسلام لبحيرى رغم أنه لا يوجد لذلك سند صحيح . وقد قال هوارت في بحث له حول هذا الموضوع : « لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى في الدور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسج الخيال » .

(راجع : مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٣٤ ـ هامش ١ ، دار القلم بالكويت ١٩٧٤ ، وانظر كتابنا : الاستشراق ص ٨٥) .

أنه زنديق ، وأنه أريوس جديد أسوأ من أريوس الأول[1] . وأسطورته تنهج نهج أسطورة الزنادقة الكنسيين الكبار من أمثال سيمون ماجوس أو نيكولاوس ★ .

وتضيف المؤلفات الشعبية إلى ذلك افتراءات شنيعة ، ولكن هناك بجانب ذلك أقوالا إيجابية أيضا . ونظرا لأنه قد حيل بين محمد وبين منصب البابوية الذى يستحقه - نظير خدماته التى أداها بجعل قسم كبير من العالم يدين بعقيدة الإيمان بإله واحد - فقد تحول إلى منشق على الكنيسة[2]

---

(١) آريوس (٢٧٠ - ٣٣٦م) ولد في الاسكندرية وكان قسيسا بها ، وقد عارض أسقف الاسكندرية الذي كان يذهب إلى القول بأن المسيح ابن الله وأنه مساو للآب وأن له طبيعة وذاتا واحدة مع الآب . وقد ذهب آريوس إلى القول بأن المسيح غير مساو للآب في الجوهر والعظمة وأنه مخلوق بإرادة الآب حادث غير أزلي . . الخ . وقد تبع آريوس كثيرون ، وعندما طرد من الاسكندرية خرج قاصدا فلسطين وسوريا فتحزب له أساقفة كثيرون في تلك الجهات ولا سيما أسقف قيصرية وغيره من أساقفة بيروت وصور واللاذقية وغيرها .

وقد عقدت عدة مجامع كنسية لمناقشة تعاليمه منها مجمع الاسكندرية عام ٣١٩ ، ومجمع نيقيه عام ٣٢٥ بأمر الامبراطور قسطنطين ، ومجمع القسطنطينية عام ٣٣٦ . وعلى الرغم من أن الغلبة في النهاية استقرت لآراء مخالفيه الذين جعلوا من المسيح إلها وقالوا بالتثليث فإن تعاليمه قد انتشرت بعد موته أكثر مما انتشرت في حياته ، واعتنق الملك قسطنس خليفة قسطنطين آراء آريوس . وقد أمر قسطنس بعقد مجمع في مديولان (ميلان) حضره اكثر من ثلاثمائة أسقف ، وتبين أن اكثرية الآراء فيه كانت للآريوسيين . وقد بقيت التعاليم الآريوسية ممتدة في أسبانيا والولايات الجرمانية أكثر من ثلاثة قرون .

ولكن عندما وقع الانشقاق بين الآريوسيين وانقسموا إلى فرق عديدة ضعفت قوتهم وتمكن منهم خصومهم . وفى أيام ثيودوسيوس الثاني صدر الأمر باستئصال الآريوسيين وإبادتهم ، وكان ذلك في عام ٤٢٨م . ويقال إن سرفتس أحيا تعاليم الآريوسية في القرن السادس عشر فذاعت هذه التعاليم وسببت إزعاجا للكنيسة التي سارعت بالقضاء على معتنقيها . (راجع دائرة معارف البستاني) .

والأمر الجدير بالذكر هو أن الرأى الذى كان يقول به آريوس هو الرأى الذى يعتبره القرآن الكريم العقيدة المسيحية الصحيحة التي ترفض التثليث وترفض ألوهية المسيح . ومن هنا جاء هذا الاتهام الموجه إلى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه آريوس جديد لأنه أكد بنص القرآن بشرية المسيح ورفض ما عدا ذلك من تعاليم مصطنعة .

ولبعض العلماء نظرة ثاقبة في تفسير لفظ « الأريسيين » الذي ورد في رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل قيصر الروم ، والتي جاء فيها : « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين » ويذهب هذا البعض من العلماء إلى أن المقصود بالاريسيين هنا هم أتباع آريوس القائلين بالعقيدة المسيحية الصحيحة . وهذا تفسير ذكى أقرب إلى العقل والمنطق من كل ما عداه من تفسيرات أخرى .

(٢) هذه أسطورة مضحكة لا تستحق الوقوف عندها .

ويبين دانكونا بعد ذلك كيف أن جزءا من أسطورة محمد ـ ذلك الذى يتصل بأصل محمد وعلاقاته بالمسيحية واليهودية ـ يبتعد قليلا عن الحقيقة التاريخية [١] . ولكن بمرور الزمن تبتعد الأسطورة بصفة متزايدة باستمرار عن الحقيقة التاريخية ، ويصبح محمد مشابها لنيكولاوس وبلاجيوس * ، أجل ، فالبعض كان يرى أن الإسلام قد انبثق من النزاعات الداخلية الخبيثة للكرادلة الرومانيين ! وأخيرا تبقى الأسطورة عند موت محمد مع إحساس بنوع خاص من الغبطة . فالخنازير قد التهمته وهو فى حالة سكر ! ولهذا السبب أصبح أكل لحم الخنزير محرما لدى المحمديين [٢] .

كاسترى :

يتناول كاسترى [٣] فى كتابه عن الإسلام فى ملحق خاص « فكرة العصر الوسيط عن محمد والديانة الإسلامية » . ويزعم خطأ أن هذا الموضوع لم يتناوله أى مؤرخ من مؤرخى العصر الوسيط . وإذن فهو لا يعرف لا تلك الأعمال المشار إليها لكل من ليرو دى لنسى ، ودو ميريل ، ولا العرض المسهب لكل من بروتس ودانكونا .

---

(١) هنا إشارة خفية إلى أن هناك تأثيرا يهوديا مسيحيا على محمد ورسالته . وهذه نغمة قديمة سائدة في معظم الدراسات الاستشراقية حول الإسلام. (انظر في ذلك كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٦٧ وما بعدها . دار القلم بالكويت ١٩٨١ وانظر أيضا كتابنا : الاستشراق ص ٨٤ وما بعدها) .

(٢) الأسطورة لا عقل لها ، وهي في الأصل قصة خرافية من نسج الخيال . ولكن الأمر الغريب هنا هو أن الغرب كان يصور لنفسه هذه الأساطير وكأنها حقائق ، ولهذا كان المرء يستسلم لهذا الشعور الكاذب بالغبطة لما تحمله هذه الأساطير من أمنيات كاذبة ترضى في نفسه نزعات معادية للإسلام ونبيه .

(٣) هـ . دى كاسترى (١٨٥٠ ـ ١٩٢٧) ، ورد في ترجمته لدى نجيب العقيقى أنه كان مقدما في الجيش ومهتما بالدراسات المغربية ، وأنه قد اشترك في إصدار مجموعة بعنوان « مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب » . ولم يذكر له العقيقى كتابا عن الإسلام . ولكن بفانموللر يعتمد في حديثه عن دى كاسترى هنا على كتاب له عن الإسلام بعنوان L'Islam وقد صدر في باريس عام ١٨٩٦ .

ولكاسترى بعض أقوال إيجابية عن الإسلام وقد اتهم بأن رأيه في محمد إيجابي أكثر مما ينبغى (انظر في ذلك البحث الذى نشرناه في العدد الثانى من حولية كلية الشريعة بجامعة قطر ص ١٤٥/١٤٦) .

ولا يقدم لنا عمل كاسترى شيئا جديدا إلا القليل ، وحكمه على المعرفة التى كانت لدى لاهويتي العصر الوسيط عن الإسلام ليس دائما حكما صائبا (قارن النقد التفصيلى لرينيه باسيه فى مجلة تاريخ الأديان ٣٥ ، ١٨٩٧ ، ص ١٢١ - ١٢٣ .

شرودر :

أما ر . شرودر فإنه قد جمع الخطوط الرئيسة لأسطورة محمد فى العصر الوسيط . كما تتمثل فى الشعر الفرنسى القديم[1] .

وحسبما ورد فى هذا الشعر فإن محمدا وحده هو صاحب نظرية التعدد فى الألوهية بكاملها ، تلك النظرية التى يقول بها المسلمون ، وفى الأساطير الشعبية الأصيلة لا يظهر محمد أبدا بوصفه نبيا ، وإنما يظهر باستمرار بوصفه إلها ، وعلى وجه التحديد بوصفه أعظم وأقوى الآلهة الوثنية . وقبل أن يتحول محمد إلى هذا الاعتقاد كان مسيحياً مؤمنا ، وكان هو نفسه يؤمن بعقيدة الخلاص المسيحية .

ويعد محمد لدى الوثنيين خالق هذا العالم وحافظه . وتحدث عبادته بطبيعة الحال فى شكل عبادة التماثيل ، هذا الشكل الذى اعتادته جماعة المحمديين . وكما هو الحال مع إله المسيحيين فإن محمدا محاط أيضا فى السماء بالقديسين . ومثلما تعد القدس مدينة مقدسة بالنسبة للمسيحيين فكذلك تعد مكة مدينة مقدسة بالنسبة للوثنيين . حيث يوجد داخل أسوارها قبر إلههم . أما العيد الكبير السنوى الذى يقام لتمجيد محمد فيوصف بأنه يتوافق مع عيد الفصح .

وأشد التناقضات بين المؤسسات المسيحية والوثنية تتمثل فى رأى الجانبين فى الزواج . والمحمديون يكرهون إله المسيحيين ، وكذلك لا تعرف كراهية المسيحيين لأتباع محمد حدودا تقف عندها . فالمسيحيون يشككون بشتى الطرق الممكنة فى طهارة محمد من الذنوب أثناء حياته الأرضية . وتروي بشغف خاص قصة موته الذى يرثى له - فالخنازير قد وجدته مخمورا فوق كومة من القمامة

---

(١) يرجع في ذلك إلى كتاب شرودر الذي صدر بالالمانية في ارلانجن عام ١٨٨٦ بعنوان « العقيدة والخرافة في الأشعار الفرنسية القديمة » .

فالتهمته[1] .

دريسباخ :

اهتم دريسباخ فى رسالته للدكتوراه برسم صورة للشرق وساكنيه كما صورها أدب الحملات الصليبية الفرنسى القديم [2] . فعلى النقيض من الملاحم الفرنسية القديمة Chansons de geste التى كانت لا تزال تعرض المسلمين كما كانوا يوصفون لنا قبل الحملات الصليبية فإنه بوسعنا أن نعرض صورة حقيقية عن الشرق من أدب الحملات الصليبية . فالمسلمون الذين يصفهم هذا الأدب هم مسلمون حقيقيون من لحم ودم . صحيح أننا لا نزال نجد فى هذه الكتابات تصورات خاطئة عن محمد وعن الإسلام ، ولكنهما مع ذلك يعرضان بطريقة مختلفة تماما بما يتفق كثيرا جدا مع الحقيقة التاريخية . فمحمد لم يعد يظهر بوصفه إلها وانما بوصفه نبيا ومؤسسا للإسلام ، وقد أصبحت أهم وصاياه الرئيسه وأهم النقاط فى تعاليمه معروفة . وقد برز الفرق واضحا بين السنة والشيعة . وهناك اهتمام خاص يثيره الحشاشون وزعيمهم « شيخ الجبل »[3]

(١) الأسطورة ـ كما سبق أن أشرنا ـ لا عقل لها ، ولذلك لا يعجب المرء من انتشار مثل هذه الغرائب المنكرة حول محمد صلى الله عليه وسلم وحول دينه في عصر كان يعتمد في فهمه للإسلام ونبيه على مثل هذه الخرافات التي روجت لها السلطات الكنسية . وأعتقد أن القارئ لا ينتظر منا أن نقف طويلا عند مناقشة ما جاء في هذه الأساطير من تفصيلات ، إذ يكفي أنها أساطير لا أصل لها .

(٢) ظهرت هذه الرسالة الجامعية بالألمانية في برسلاو عام ١٩٠١ بعنوان « الشرق في الأدب الفرنسى القديم للحملات الصليبية » .

(٣) الحشاشون اسم يطلق على ذلك الفريق من الإسماعيلية الذين كانوا يحتلون أيام الحروب الصليبية الحصون الجبلية في الشام وغيرها ، والذين جروا على التخلص من أعدائهم بالاغتيال . ومؤسس هذه الجماعة السرية الخطيرة هو الحسن بن الصباح . ويبدأ تاريخ الحشاشين بفتح الحصن الجبلى « الموت » على يد الحسن بن الصباح عام ٤٨٣هـ . ويقال إنه أنشأ هناك حدائق غناء كان الفدائيون يتمتعون فيها بالملاذ التي يتوقعون التنعم بها في الفردوس . ولكن الذى لا ريب فيه أن جنتهم تلك كانت محض خيال يصوره لهم الحشيش الذى كانوا يدخنونه .

وفى عام ٥٣٥هـ فتحوا عددا آخر من الحصون في شمال بلاد الشام وغيرها . وكان رأس هؤلاء الحشاشين الشاميين المؤقت يدعى « شيخ الجبل » وقد قضى المغول عليهم ، واحتل جنود هولاكو قلعة « الموت » عام ٦٥٤هـ ولكن الضربة القاضية التي قضت تماما على السلطان السياسى لهذه الفرقة المروعة كانت على يد سلطان المماليك بيبرس عام ٦٧١هـ . (راجع دائرة المعارف الإسلامية) .

دوتيه :

يتناول دوتيه الخرافة التى انتشرت انتشارا واسعا فى العصر الوسيط والتى تقول بأن محمدا كان فى الأصل كاردينالا رومانيا يسعى للحصول على تاج البابـوية ، ولكنه عندما فشل فى الحصول عليه أسس الطائفة المحمدية وصرف آلافا كثيرة من النفوس عن المسيحية[١] .

باسيه :

أما باسيه [٢] فقد تناول بالبحث العميق أسطورة أخرى عن محمد كانت هى الأخرى منتشرة أيضا انتشارا واسعا فى العصر الوسيط ، وتقول هذه الأسطورة إن القيصر كارل الكبير قام بتحطيم كل تماثيل الآلهة التى كانت قائمة فى أسبانيا ماعدا تمثالا واحدا فقط كان موجودا فى قادس[٣] Cadix ويروى المسلمون أن محمدا نفسه قد قام بعمل هذا التمثال أثناء حياته باسمه هو وأنه بفضل ما لديه من فن سحرى قام بحبس كتيبة من الجن بداخله . وقد عملت هذه الكتيبة بما لها من تأثير على منع تحطيم هذا التمثال من جانب أي أحد يريد تحطيمه .

---

(١) لقد تناول ادموند دوتيه هذه الموضوعات في كتابه بالفرنسية « محمد الكردينال » الصادر في باريس عام ١٨٩٩ .

(٢) رينيه باسيه (١٨٥٥ - ١٩٢٤) مستشرق فرنسى ، نشر العديد من الأبحاث والدراسات الإسلامية والعربية والبربرية والحبشية في مجلات علمية كثيرة ، ورأس مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ ، وأسهم في دائرة المعارف الاسلامية ، وكان عضوا في العديد من المجامع العلمية . والبحث الذى يشير اليه بفانموللر هنا هو البحث الذى نشره باسيه بعنوان « هرقل ومحمد » عام ١٩٠٣ في مجلة العلماء من ص ٣٩١ حتى ص ٤٠٢ .

(٣) قادس مدينة اسبانية وهى عاصمة إقليم قادس ، ويسكنها حوالى ١٣٦٠٠٠ نسمة ، وهى مدينة قديمة يرجع تاريخ إنشائها إلى عام ١١٠٠ قبل الميلاد .

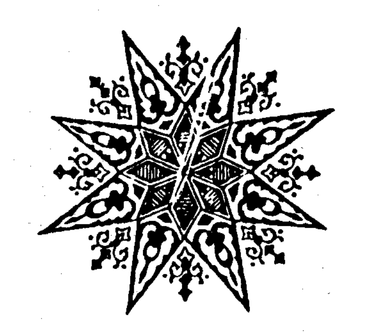
وقد أثبت باسيه بالتفصيل انتشار هذه الأسطورة في المصادر المسيحية والعربية والاسكندنافية ، وبرهن على ان الأمر هنا يدور ـ على الأرجح ـ فى الأصل حول تمثال لهرقل ظن المحمديون خطأ أنه يرمز إلى محمد . ثم انتقلت الأسطورة عن طريق المسلمين إلى المسيحيين فى أسبانيا . ومن هناك تسربت إلى الأدب الفرنسى فى العصر الوسيط[1] .

(١) إذا رويت هذه الاساطير على ألسنة الغربيين ودونت في مؤلفاتهم فهذا أمر مفهوم وقد اعتدنا عليه . أما أن يقال إن المسلمين أنفسهم قد قالوا بهذا الهراء وأن مصادرهم قد دون فيها هذا الباطل فهذا أمر لا يمكن تصديقه ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ما يأتي : ـ

أولا : المسلمون يعرفون تماما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حرم التماثيل لأنها تذكر بالأصنام من ناحية ولأن فيها محاكاة لخلق الله من ناحية أخرى . وقد ورد في هذا الصدد العديد من الأحاديث الصحيحة ومن ذلك ما وراه مسلم في صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه تماثيل أو تصاوير » . وقوله : « يا عائشة : أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وفى رواية أخرى « . . . الذين يشبهون بخلق الله » فهل يعقل بعد هذا التحذير الشديد ـ أن ينسب المسلمون إلى نبيهم أنه صنع لنفسه تمثالا أو أوعز بصنعه ؟ وقد يقال إن بعض العلماء فى العصر الحديث قد قال بتأويل مثل هذه الأحاديث . ولكن هذا التأويل لم يكن بالقطع قائما لدى المسلمين في الأندلس .

ثانيا : المسلمون يتحرجون حتى اليوم ـ بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنا على ظهور الإسلام ـ من مجرد ظهور شخصيات تمثل أدوار أحد من الصحابة في مشاهد هادفة ، ناهيك عن إقامة تماثيل لهم . فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم . وإذا كان هذا شأن المسلمين اليوم حيث تنتشر التماثيل في كل مكان وحيث أصبح التمثيل أمرا مألوفا فما بالك بالمسلمين منذ قرون عديدة ، وفي بلاد أحرقت كتاب الإحياء للغزالى ظنا منها أنه ربما يحمل أفكارا فلسفية لا يرضى عنها الإسلام .

إن الأمر الأقرب الى المعقول هو أن هناك أسطورة كانت قائمة قبل أن يدخل المسلمون إلى هذه البلاد ، ثم حورها الأوروبيون أنفسهم ـ وإيمانهم بالأساطير كان شديدا في العصر الوسيط ـ وروجوها على السنة المسلمين .



سيرة الرسول في تصورات الغربيين

فصول مختارة من كتابات المستشرق الألماني

جوستاف بفانموللر

ترجمها وقدم لها وعلق عليها

الأستاذ الدكتور

محمود حمدي زقزوق

عميد كلية أصول الدين

جامعة الأزهر

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الثاني - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

أولاً : تمهيد

لقد نشرت الحلقة الأولى من هذا البحث في العدد السابق من هذه المجلة(١) . وكنا قد ذكرنا حينذاك أنه نظراً لطول الموضوع وتشعبه سنضطر إلى تقسيمه إلى حلقات آملين أن نستكمله في أعداد قادمة إن شاء الله .

وها نحن نتابع في هذا العدد ما وعدنا به القاريء الكريم حيث يجد هنا الحلقة الثانية(٢) من هذا البحث الهام . ونسأل الله أن يوفقنا إلى الاستمرار في إعداد بقية الحلقات .

ولسنا هنا في حاجة إلى إعادة ما سبق أن ذكرناه في تقديم الحلقة الأولى عن أهمية هذا البحث ومبررات ترجمته رغم ما قد يكون فيه من أوصاف تسيء إلى نبينا ﷺ . ولهذا نرجو من القاريء الكريم أن يرجع في ذلك إلى ما ذكرناه في هذا الصدد في موضعه .

ولكننا نود هنا أن نضيف إلى ذلك حقيقة هامة تتمثل في أننا إذا أردنا أن نعرف سر موقف الأوربيين اليوم من الإسلام ونبيه فإن علينا أن نبحث عن ذلك ، ليس في الظواهر السطحية التي نراها اليوم هنا أو هناك ضد أو مع الإسلام ونبيه ، بل فيما رسخته القرون السابقة من مواقف تجاه الإسلام ونبيه ﷺ ، والتي لا تزال في أعماق الأوربيين تظهر في المناسبات بوعي أو بغير وعي . ومن هنا تأتي أهمية التعرف على هذه المواقف السابقة .

ولعلي أنتهز هذه المناسبة لأوجه نداء إلى المؤسسات العلمية الإسلامية لتخصيص جزء من جهودها لدراسة التراث الغربي المتعلق بالإسلام ، وربما كان من الأوفق أن تتجه بعض هذه المؤسسات إلى إنشاء مركز علمي خاص لدراسة التراث الغربي المشتغل بالإسلام . وهو تراث غزير في كمه .

ويكفي أن نشير هنا إلى أن ما ألفه المستشرقون عن الشرق في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) قد بلغ ستين ألف كتاب(٣) .

ومواقف الغرب الأساسية تجاه الإسلام لم تتغير كثيراً في عصرنا الحاضر رغم بعض الظواهر الإيجابية في بعض الأحيان . ففي الوقت الذي نرى فيه سكرتارية الفاتيكان لغير المسيحيين تصدر كتاباً تدعو فيه إلى الحوار بين المسيحية والإسلام على أسس متحررة من الأوهام والأحكام السابقة ضد الإسلام والتي هي من موروثات العصور الوسطى(٤) - نجد مؤلفات تصدر في الغرب بين الحين والآخر في أيامنا هذه تحذر من خطر الإسلام على مستقبل الغرب والحضارة الغربية(٥) ، ونجد بعض الكتاب الغربيين -مستشرقين وغير مستشرقين- لا يزالون حتى اليوم أسرى التصورات القديمة التي خلفتها العصور الوسطى عن الإسلام ونبيه ، ناهيك عما تفعله وسائل الإعلام في الغرب بالإسلام ومقدساته .

وفي هذا الجزء من البحث يلاحظ القارىء الكريم أن بفانموللر يعود للحديث مرة أخرى عن بعض المؤلفات التي سبق أن تناولها في الحلقة الأولى . ولكن الحديث هنا يختلف ، إذ أنه هنا يفصل ما سبق أن أجمله وذكره هناك في عبارات قصيرة ، ويلقي أضواء على جوانب لم يشر إليها من قبل . ومن هنا يمكن أن تعد الحلقة السابقة -إلى حد ما- بمثابة تمهيد لهذه الحلقة . فهنا تعرض وجهات النظر مفصلة ومدعمة في أغلب الأحيان باقتباسات من المؤلفات المعنية . وقبل أن نعرض الترجمة الكاملة للفصول التي اخترناها من كتاب بفانموللرنود أن نقدم لها بنظرة إجمالية تشير فقط إلى أهم النقاط في خطوط عريضة :

لقد بدأ اهتمام المستشرقين بالكتابة عن حياة محمد اعتباراً من القرن السابع

عشر بعد أن كانت الكتابات السابقة في هذا المجال كتابات جدلية كنسية تعبر عن اتجاه الكنيسة المعادي بطبيعة الحال للإسلام . ولكن هدف المستشرقين الواضح والمعلن حينذاك لم يكن أيضاً هدفاً علمياً ، بل كان محاربة الإسلام والدفاع عن المسيحية . ومن أجل هذا الغرض وجد المستشرقون أن أفضل وسيلة لمحاربة محمد تتمثل في معرفته . ومن هنا كان لابد من الاطلاع على القرآن ومحاولة فهمه . وقد اشتملت المؤلفات في ذلك الوقت على أكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم والشتائم وقاحة ، وذلك جنباً إلى جنب مع ذكر وقائع وحقائق تاريخية وكذلك ترجمات من القرآن الكريم .

ولعل «بولا نفلييه» كان أول من تجرأ -في وسط هذا الجو القاتم- على وصف محمد ﷺ بأوصاف إيجابية ، إذ قال عنه إنه أداة الله التي قضى بها على العبادة الباطلة وأحل محلها العبادة الحقة .

أما عصر التنوير في أوربا فقد مجَّد محمداً ﷺ بصفة عامة . ففي عصر التنوير الفرنسي احتل محمد عليه الصلاة والسلام مكان الصدارة في اهتمامات المثقفين وكان موضوع أحاديث الصالونات في ذلك العصر ، لأن فولتير قد وصفه بأنه رجل عظيم جمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التي يمكن أن يقوم بها إنسان على ظهر الأرض . أما التنوير الألماني فقد كان يرى في محمد ﷺ داعية إلى الدين الطبيعي .

وقد قال كارلايل بحق : «إن الأكاذيب التي عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول محمد لا تسب أحداً غيرنا» .

وفي القرن التاسع عشر بدأ عصر المؤلفات الاستشراقية التي توصف بأنها مؤلفات تاريخية نقدية في السيرة . وكان جوستاف فايل أول من قام بمحاولة في هذا الصدد واعتمد على مصادر عربية وراح يبحثها بحثاً نقدياً ، وقام بجمع كل

المؤلفات الأوربية حول السيرة . ولكن النزعات أو الميول الأساسية الأوربية إزاء محمد ظلت قائمة تتخللها مختلف الظلال والألوان .

وبجانب اشبرنجر مثلاً - الذي كان ينتهز كل مناسبة لتصوير أخلاق محمد ﷺ تصويراً سيئاً ما وجد إلى ذلك سبيلاً - كان هناك مستشرقون آخرون معتدلون نسبياً مثل نولد كه الذي كان يسعى إلى «موضوعية هادئة» . ويقول نولدكه :

« إن محمداً كان على اقتناع بمهمته لإنقاذ إخوانه في الإنسانية من العذاب الأبدي بهدايتهم إلى العقيدة الصحيحة ولكي يجعلهم مشاركين في السعادة السماوية» .

أما كريل فإنه يقول : «يجب أن يعترف المرء رغم كل أخطائه أن محمداً كان مؤسس المدنية العربية وأنه قد وضع شعبه على درجة عليا من الدين» .

أما موقف بفانموللر نفسه -صاحب البحث الذي نقوم هنا بترجمته- إزاء جهود زملائه التي تضرب في معظمها في متاهات واسعة فيبدو أنه يميل إلى أن يترك أمر هذه القضايا مفتوحاً عندما يقول : إن أصول نشأة الإسلام تبدو لنا اليوم بعد بحوث شاقة لا نهاية لها أكثر غموضاً من أي وقت مضى .

ويتضح لنا من دراسة الكثير من المؤلفات المذكورة في هذا البحث أن كثيراً من المؤلفين قد وضعوا لأنفسهم تصوراً خاصاً عن محمد ﷺ يتمثل في زعمهم بأنه ليس بنبي حقيقي ثم راحوا يحاولون إثبات تصورهم هذا بشتى الوسائل ، كما أفرغوا مفهومهم للدين على كل ما وجدوه في الإسلام ليبينوا أن الإسلام ليس ديناً سماوياً .

ومن الأمور التي تسترعي الانتباه هنا هو أن المستشرقين الذين يكتبون عن الإسلام ونبيه لا يمثلون دائماً خطاً واحداً في جميع المسائل ، فهناك أمور يختلفون

عليهـا ويبلغ النقـاش فيها حداً بعيداً سواء من جانب المؤيدين أو من جانب المعـارضين . ومن أمثلة ذلك ما ادعاه «جريمة» من أن محمداً ﷺ لم يكن إلا مصلحاً اشتراكياً ما كان من تفنيد «سنوك هورجرونيه» لآراء «جريمة» في هذا الصدد .

وفي ختام هذا التمهيد نود أن نشير أيضاً إلى أن الكتاب الذي نترجم منه هذه الفصول لا يشتمل على أية هوامش . ومن أجل المصلحة العلمية قمنا بوضع هوامش مختلفة نعرِّف فيها بالكتاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض المزاعم أو المفتريات على الإسلام ونبيه ﷺ ، ونوضح فيها أيضاً بعض المفاهيم الواردة في ثنايا النص طالما كان ذلك ضرورياً .

ومن ناحية أخرى فإن المؤلف قد قسم الموضوع هنا إلى تقسيمات عامة على النحو التالي :

التراجم الحديثة لسيرة محمد :

(أ) من بودييه إلى سيل .

(ب) التنوير الفرنسي .

(جـ) من التنوير الألماني حتى ظهور أول كتاب تاريخي نقدي عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل .

(د) الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد في القرنين التاسع عشر والعشرين .

(هـ) كتابات شعبية عن حياة محمد .

وقد قمنا بتقسيم كل فصل من هذه الفصول إلى فقرات ووضعنا لها عناوين جانبية تحمـل في الغالب اسم المؤلف الذي تتناوله كل فقرة على حدة . ولعلنا نكون في ذلك كله قد وفقنا إلى الصواب .

(د. محمود حمدي زقزوق)

ثانياً : ترجمة وتعليقات

التراجم الحديثة لسيرة محمد

(أ) من بودييه إلى سيل :

١ - ميشيل بودييه Michael Baudier :

يرجع الفضل إلى ميشيل بودييه(٦) في أنه أول من قام بوضع وصف شامل لحياة محمد بدلاً من الكتابات الجدلية الكنسية . وقد كان بودييه بالنسبة لعصره - على أي حال - مؤرخاً معتبراً ، كما كان كاتباً شعبياً . ويدين له الجمهور الفرنسي بالفضل لكتابه الذي استطاع أن يعرف فيه بالإسلام . ويباهي بودييه بحق بأنه أول من جمع هذه المادة (المتعلقة بحياة محمد) في صورة تاريخ كامل . ولـذلـك كان لكتـابـه أيضاً تأثير يفوق الوصف على التصورات (الغربية) عن الإسلام وعن محمد .

ولم يكن هذا العمل - على وجه اليقين - عملاً محايداً . فقد كانت غاية بودييه هي «الكشف عن أباطيل نبي الأتراك وفحشه وخدائع محمد وزيف طائفته والكشف عن تعاليمه المضحكة والوحشية»(٧) .

وقد كان بودييه كاثوليكياً متديناً ، يستقي معلوماته من مصادر كنسية فقط ، وكان ينقل عنها دون نقد . وبفضل كتاباته لم ير القرن السابع عشر في محمد إلا دجالاً أو مضللاً ، ولم تكن لدى هذا القرن إلا الرغبة في دفن محمد تحت أكوام من النقض والتفنيد .

ولكن هذا الحماس الديني كان له أيضاً جانب طيب . فلكي يستطيع المرء

أن ينقض محمداً بطريقة أفضل كان لابد للمرء أن يعرفه ؛ وقد كان من اللازم أن يطلع المرء على القرآن وأن يفهمه . وقد روى بودييه حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة ؛ والحق أنه قد جعل هناك مكاناً في كتابه لأكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم وقاحة . أجل ، لقد أغرم بودييه بوصف أعمال السلب والنهب والقسوة والفجور من جانب النبي وصفاً يصل إلى حد التفاصيل الجزئية(٨) .

ولكن بودييه ، في العصر نفسه الذي تابع فيه روح موروثات العصر الوسيط ، قام بتقديم وقائع تاريخية ومعلومات تشتمل على درجة قصوى من الدقة والثراء . أجل ، إن الأمر الأهم من ذلك هو أنه قام بوصف تعاليم جوهرية للديانة المحمدية بعبارات واضحة ، وأبرز كيف تتم مراعاة الزكاة والإحسان في بلاد العرب مراعاة كبيرة . وعلى الجملة فإنه قد جعل الجمهور يتعرف بطريقة مفهومة تماماً على قطب الرحى الذي يدور عليه دين الأتراك كله .

ويستطيع المرء أن يطلق على نصف الكتاب أنه ترجمة فرنسية للقرآن . وبعد أن تحدث بودييه عن محمد وعن أعماله وعما يسميه بالتدرج الديني في الرتب Hierarchie لدى المسلمين ، يسعى بودييه إلى توسيع نطاق عمله التفنيدي كله في خطوط ثابتة لكي يواجه سم الأتراك بسم مضاد . وتحت العنوان العام «إلحاديات» محمد يصف بإسهاب المواضع القرآنية التي أفسد فيها النبي الزائف الديانة المسيحية . ولكن لكي يجعل بودييه الخديعة أو التضليل واضحاً بقدر الإمكان أمام الجمهور فإنه يقتبس آيات من القرآن بجانب نصوص من الكتاب المقدس . وعلى هذا النحو يتعرف القاريء على الأسس الرئيسية لتعاليم محمد عبر كل صفحات الكتاب .

٢ - **إدوارد بوكوك** E. Pococke :

وفي حين كان بوديبه ينقل بأمانة عن المصادر الكنسية القديمة فقط ، فقد قام المستشرق الشهير إدوارد بوكوك(٩) (١٦٠٤-١٦٩١) - الذي استطاع أن يحوز على معرفة واسعة باللغة العربية أثناء إقامته الطويلة في الشرق - قام بنشر مصدر عربي عن حياة محمد ، لكنه مصدر مكتوب في تاريخ حديث ، ومن أجل ذلك فإن قيمته ضئيلة من وجهة النظر التاريخية (ص ١٣٢)(١٠) .

ولكن أهمية هذا الكتاب تتمثل في أن المرء قد أصبح أخيراً على وعي بأنه يتحتم الرجوع إلى مصادر عربية أساسية لكي يمكن الوصول إلى نظرة أكثر موضوعية إلى محمد وتعاليمه . وقد اشتمل عمل بوكوك على هوامش مسهبة واستطرادات تشهد بعلمه الغزير . وقد تم في العصر التالي استغلال الكتاب إلى أقصى حد من جانب كل هؤلاء الذين كتبوا عن محمد وعن التاريخ العربي .

٣ - **هوتنجر** Hottinger :

في كتابه تاريخ الشرق «Historia Orientalis» حاول يوهان هينريش هوتنجر(١١) (١٦٢٠ - ١٦٦٧) الذي تخرج بوصفه مستشرقاً في كل من جروننجن وليدن ثم أصبح أستاذاً لتاريخ الكنيسة واللغات الشرقية في زيوريخ - حاول تصوير الحياة والطبيعة الشرقية المتعددة الجوانب بقدر الإمكان . وقد قدم فيه تاريخاً مفصلاً نسبياً للعرب ، وقدم فيه بوجه خاص أيضاً تاريخ محمد وما يتصل به . وذلك كله في شكل أكثر غزارة وثراء مما كان قائماً حتى ذلك الحين .

وقد كان كتاب هو تنجر - الذي اعتمد فيه كثيراً على كتاب بوكوك المشار إليه «Specimen» - يشكل بجانب كتاب بوكوك من الآن فصاعداً ولفترة طويلة

الينبوع لتاريخ العرب . ولكن هوتنجر يرى في مقدمة كتابه أن من الضروري أنه يجب عليه أن يعتذر لقيامه بتقديم عرض لحياة محمد وتعاليمه . ولكي يبرر عمله هذا يستشهد بعلماء من أمثال بوللينجر Bullinger وميكونيوس Myconius وببلياندر Bibliander ، وكذلك يستشهد بالشخصيات المعاصرة الشهيرة من أمثال لا مبرور L'Empereur الأستاذ بجامعة ليدن .

وبالإضافة إلى تشجيع (تقدم) التفسير والدفاع(١٢) والتاريخ العام فقد كان هوتنجر يستهدف الوصول إلى غايتين :

فقد حدث أن اتهم الروم الكاثوليك دعاة الإصلاح (الديني) بالسير في خفاء وراء المذهب المحمدي . وقد رد هوتنجر هذا الاتهام وأثبت في فصل خاص -على سبيل المثال- أن حجج بيلارمين(١٣) Bellarmin في الدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية مستقاة من علم العقيدة الإسلامي .

وبجانب ذلك يريد هوتنجر - كما سبق أن فعل ببلياندر في عصر لوثر - أن يسهم في محاربة خيانة المحمديين وغدرهم ومحاربة السيادة التركية . ويعتقد هوتنجر أن تفنيد الديانة التركية يعد أيضاً بمثابة توجيه ضربة للسيادة التركية .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان يسود لدى هوتنجر السعي نحو إنصاف الإسلام وإنصاف مؤسسه بقدر الإمكان .

٤ - ألكسندر روس A. Ross :

وبعد ظهور كتاب هوتنجر «تاريخ الشرق» بعامين ظهر في انجلترا في عام ١٦٥٣ أول كتاب في تاريخ الأديان العام من تأليف ألكسندر روس تحت عنوان التقديس الشامل أو «Pansebeia» ، وقد ترجم أيضاً إلى الألمانية بعد ذلك بخمسة عشر عاماً(١٤) .

ولم يبـد روس في هذا الكتـاب الجامع إلا قليلاً من التعاطف مع أشكال المعتقـدات الأجنبية ، ولم يبق لديه من هذا التعـاطف بالنسبـة للإسلام بوجه خاص إلا أقل القليل . صحيح أنه يبرهن في فصل خاص على أن محمداً لم يكن العدو الكبير للمسيح الذي تحدث عنه كل من بولس في الإصحاح الثاني من رسالته الثانية إلى أهل تسالونيكي وكذلك يوحنا في سفر الرؤيا . ولكن روس رغم ذلك لا يريد أن ينكر «أن محمداً كان عدواً للمسيح لإتيانه بتعاليم قام بترويجها تعارض ألوهية المسيح» .

٥ - ماراتشي Marracci :

وقد قدم ماراتشي في كتابه «الرائد في تفنيد القرآن» نظرة على حياة وأعمال محمد مؤلف القرآن .

وقد حاول جاهداً - كما فعل بوكوك وهوتنجر - أن يرجع إلى مصادر عربية . ويعبر ماراتشي هنا عن الغاية من وصفه لحياة محمد على النحو التالي : «إذا أردت أن أصور حياة محمد حسبما كتب في ذلك مؤلفونا وكتابنا فسأجعل نفسي مدعاة للسخـرية لدى المحمـديين . فالفرق كبير جداً بين ما يروونه وما نرويه نحن لدرجـة أن المـرء لا يمكنـه أن يصـدق أن كلا الجانبين يتناول بالحديث رجلاً واحداً . ومن أجل ذلك فإنني أريد أن أتابع أولئك ، ليس لأني آخذ كل شيء على أنـه حق ، بل لأننـا إذا تنـاولنـا عدو الدين بالنقض والتفنيد فإن محاربته بأسلحته هو أفضل من محاربته بأسلحتنا ، وحينئذ يسهل التغلب عليه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن كثيراً من كتابنا يروون عن محمد أشياء تثير الضحك لدى المحمديين ، ولا تجدي إلا في زيادة تقويتهم في خرافاتهم . وعلى ذلك فإني سأعتمد في الحديث عن حياة محمد على أكثر المؤلفين العرب قدراً . وإذا كنت

على علم أيضاً بأن هؤلاء يأتون بالكثير من الأكاذيب لإعلاء شأن نبيهم الزائف فإنني لن أجعلهم يعتبرونني كاذباً» .

وعلى الرغم من أن ماراتشي - بناء على إحاطته بالمصادر العربية - قد استطاع أن يثبت أخطاء كثيرة لأسلافه في محاربة محمد فإن محمداً قد ظل لديه هو النبي الزائف والمضلل والغاصب ومؤسس طائفة تثير الاشمئزاز ومؤلف كتاب مملوء بالتناقضات والخرافات الكاذبة والأباطيل(١٥) .

٦ - **بريدو** H. Prideaux :

وإذا كان ماراتشي قد كتب ما كتب بوصفه مجادلاً كاثوليكياً واضحاً ، له غرض أساسي يتمثل في الدفاع عن المسيحية في مقابل الديانة المحمدية ، فإن العالم دين همفري بريدو قد أراد بوصفه لحياة محمد أن يقدم للمؤلهين الطبيعيين «Deisten» في عصره مرآة يرون فيها أنفسهم . ويصور محمداً ليس بوصفه أكبر الدجالين فحسب ، بل بوصفه أيضاً أحد المجرمين(١٦) . وحياة محمد ينبغي أن تكون بمثابة انعكاس لصورة مزعجة للكفار والملحدين والمؤلهين الطبيعيين والإباحيين . وقد أراد بريدو أن يكون كتابه مجرد جزء من تاريخ الكنيسة في الشرق وأن يثبت فيه أن النبي كان بمثابة سوط الله لمعاقبة الكنائس الشرقية وحملها على التوبة النصوح .

٧ - **بولانفلييه** : Boulainvilliers :

وفي حين كان كل من ماراتشي وبريدو يرى في محمد أكبر المضلين فقد ذهب الكونت بولانفلييه إلى أقصى الطرف الآخر . وهنا يظهر لا بوصفه مؤرخاً ، بل يظهر كمادح وكاتب روائي . وقد كان غرضه الواضح هو أن يرفع من شأن

الإسلام على حساب المسيحية . ومن أجل هذه الغاية عرض محمداً بوصفه إنساناً وأداة من خلالها ارتفعت العبادة الباطلة وحلت محلها العبادة الحقة . وقد مدح محمداً بأنه كان حكيماً قام بتمدين شعبه ، وبأنه كان أداة من أدوات الله وبأنه أتى بدين عقلي(١٧) .

٨ - **جانييه** J. Gagnier :

وقد حاول جان جانييه - أستاذ اللغات الشرقية في أكسفورد وخليفة بوكوك - أن يتجنب هذين الجانبين المتطرفين ، وذلك بوصفه لمحمد كما تظهره المصادر العربية . وفي عام ١٧٢٣ نشر حياة محمد لأبي الفداء(١٨) (١٢٧٣ - ١٣٣١ ، انظر ص ١٢٨) بالعربية واللاتينية مع مقدمة وهوامش تدل على سعة علمه . ولكن جانييه قام - بناء على طلب العديد من الشخصيات المعروفة التي أرادت أن تتعرف على محمد بالتفصيل ولم تكن تستطيع القراءة بالعربية أو اللاتينية - قام بتأليف كتاب عن محمد بالفرنسية .

وقد خصص جانييه مقدمة هذا الكتاب بصفة رئيسية لتفنيد آراء بولانفلييه(١٩) . أما الكتاب نفسه فإنه يعتمد اعتماداً دقيقاً على المؤلفين العرب ويجعلهم يتحدثون بأنفسهم . أجل ، لقد احتفظ جانييه بخشوع نبرة حديثهم ، ولم يمدح أو يَلُم على الإطلاق ، ولم يصف شيئاً من عنده . فهو لا يريد أن يصف محمداً كما كان ، بل يريد فقط أن يجعل الأوربيين يتعرفون على ما يرويه ويعتقده المسلمون الأصوليون !

ولكنه قد سار في هذا العمل بكثير من المهارة والذوق لدرجة أن كتابه قد اعتبره جميع العارفين منذ ذلك الوقت أفضل ما كتب عن سيرة محمد ، وقد اغترف منه كثيراً أو قليلاً كل المؤرخين ممن كتبوا عن حياة محمد(٢٠) .

٩ - جورج سيل G. Sale :

وبعد مرور عامين على ظهور كتاب حياة محمد لجانييه ظهرت في عام ١٧٣٤ الترجمة الشهيرة للقرآن التي قام بها جورج سيل (انظر ص ٢١٦)(٢١) . وفي «المقدمة المؤقتة» التي تدل على سعة الاطلاع حاول سيل أن يكون منصفاً لمحمد . فلم يكن محمد أبداً -في رأيه- واحداً من أمثال جبابرة الملحدين كما يتصوره المسيحيون عادة . والضرر الذي ألحقه محمد بالمسيحية ينسب إلى جهله أكثر مما ينسب إلى خبثه(٢٢) .

١٠ - إيرهارت J. Ehrhardt :

وهناك كتيب من تأليف ياكوب إيرهارت كان يعد بالنسبة لعصره جهداً جديراً بالاعتبار نقد فيه الأخطاء الأساسية للكتاب المعدودين وغير المعدودين في عرضهم لتاريخ محمد ، وكشف فيه عن أسباب ذلك(٢٣) . فهو يتناول - على سبيل المثال - الأخطاء المتعلقة بالترتيب الزمني والأخطاء الجغرافية ، والأغلاط والأساطير المتعلقة بمعلمي محمد ، ويتناول أعمال السلب والنهب واللصوصية التي نسبت إليه ، وما يقال عن معجزاته وصورته ومرضه بالصرع وغير ذلك .

ب - عصر التنوير الفرنسي

١ - فولتير Voltaire :

بعد تسع سنوات من ظهور حياة محمد لجان جانييه عرضت في عام ١٧٤١ مسرحية فولتير الشهيرة «التعصب أو محمد النبي» أول مرة في ليل Lille . وفي هذه المسرحية يصف فولتير النبي بنفس الطريقة القديمة بوصفه منافقاً عديم الحياء ودجالاً ، ومستبداً تحركه الشهوات الحسية ووغداً متعطشاً للدماء(٢٤) .

ولم يكن فولتير يريد بمسرحيته إطلاقاً أن يصف محمداً كما يعرفه التاريخ ، وإنـما استخـدمه فقط لكي يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد خداع القساوسة والخرافات وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من نزعة التعصب .

وبجانب هذه الصورة لمحمد نجد لدى فولتير صورة أخرى في مقالته الشهيرة عن الأخلاق «Essai sur les moeurs» . ففي هذه المقالة لم يعد محمد يظهر بوصفه «كبير المنافقين» ، بل بوصفه الرجل العظيم وبوصفه كروموبل(٢٥) Cromwell آخـر ، جمع في شخصـه بين الفاتح والمشرع والحاكم والواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التي يمكن أن يلعبها إنسان على ظهر الأرض . وهنا نجد فولتير معتمداً بوضوح على بولانفلييه .

٢ - أثر كتابات فولتير في الأوساط الثقافية :

لقد قرأ الكثيرون مقالة فولتير «في الأخلاق» بحماس . وسرعان ما أصبح محمد موضوعاً للأحاديث في صالونات العصر . وبعض المتخلفين عن الركب فقط مثل ديدرو Diderot في كتابه «رسائل إلى صوفي فولاند» تجرأ على القول بأن محمداً كان أفضل صديق للنساء وأكبر عدو للعقل(٢٦) . وفي مقابل هذه الآراء القديمة دأب الموسوعيون وأصدقاؤهم على تكرير صيغ فولتير مع مبالغات مماثلة .

وعلى الرغم من إعجاب ديدرو الخفي بمحمد فإنه يصفه بأنه مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة . وقد أتى الجماعون Kompilatoren أو الكتاب المولعون بالجمـع - كما يحدث دائماً - لكي يستغلوا هذه الشهرة الجديدة . وهكذا قام توربين Turpin بتعريف جمهوره - في مجلدات تفتقد الأصالة لكنها مكتوبة بأسلوب سهـل - بهذا الفيلسوف (يقصد محمداً) الذي ثقفته الطبيعة والمشرع الذي لم يعتمد على عون من جانب العلوم .

وقـد بدأت الأكـاديميات نفسها التي تأثرت بالحركة (الجديدة) بدأت في

تنافسها على وضع محمد كموضوع للمديح . وقد كان ذلك هو التدشين الرسمي لانتصار محمد .

وهكـذا وضعت «أكـاديمية النقـوش والآداب» موضوعاً للمسابقة بعنوان «زرادشت وكونفوشيوس ومحمد : مقارنتهم بوصفهم أصحاب مذاهب ومشرعين وأخلاقيين» . وقد فاز في هذا الصدد باستوريت Pastoret .

وفي عام ١٨٠٥ أعلن قسم التاريخ والأدب الكلاسيكي بالمعهد عن مسابقة موضوعها : «تأثير محمد أثناء القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة» . وقد حصل أحد الألمان وهو أولزنر Oelsner على أحد جوائزها .

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأ الجميع يقرءون القرآن الكريم ، وقد امتدح المرء أفكار محمد السياسية ونظرياته الأخلاقية ونظامه التشريعي . وأخيراً قدم سافاري ترجمة جديدة للقرآن (انظر ص ٢١٥)(٢٧) .

(جـ) من عصر التنوير الألماني إلى ظهور أول كتاب تاريخي نقدي عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل

١ - ليبنتز Leibniz :

لقد امتدح ممثلو عصر التنوير الألماني محمداً بوصفه داعية للدين الطبيعي . وكتب ليبنتز(٢٨) -على سبيل المثال- في مقدمة كتابه «في العدالة الإلهية» يقول : «لم يبتعد محمد أيضاً من هذه التعاليم العظيمة للدين ، وقد قام أتباعه بنشرها بين الشعوب في أقصى بلاد آسيا وإفريقيا ، تلك البلاد التي لم تكن المسيحية قد دخلتها بعد . وقد قضوا في كثير من البلاد على الخرافات والمعتقدات الوثنية التي كانت تقف موقفاً معارضاً للتعاليم الحقة التي تتمثل في وحدة الله وخلود النفس» .

٢ - ليسنج Lessing :

أما ليسنج(٢٩) فإنه يعبر في أحد أعماله «إنقاذ هيرونيموس كاردانوس» عن الاقتناع «بأن الأخبار التي كانت معروفة في عصر كاردانوس(٣٠) Cardanus عن محمد وتعاليمه كانت أخباراً قاصرة جداً وممزوجة بألف من الأكاذيب التي كان المجـادلون المسيحيون مولعين بأخذها على أنها حقائق ، إذ أنهم بذلك يكون لديهم لعبة أسهل . ولم تصل إلينا معرفة أمينة عن ذلك (أي عن محمد وتعاليمه) قبل مؤلفات كل من ريلاند وسيل ، تلك المؤلفات التي أطلعتنا في الأغلب على أن محمداً ليس دجالاً عابثاً ، وأن دينه ليس مجرد نسيج من الأباطيل والمتناقضات المرصوصة بجوار بعضها» .

وفي «شذرات فولفنبوتل» يرجع ليسنج تعاليم محمد إلى الدين الطبيعي كما فعل ليبنتز :

«صحيح أن قرآن محمد والعقيدة التركية لهما لدينا سمعة سيئة ، وليس ذلك فقط لأن مؤسس هذا الدين قد استخدم التضليل والعنف ، بل لأن هناك أيضاً (في هذه العقيدة) كثيراً من الحماقات والأضاليل مختلطة ببعض العادات الخارجية الوافدة التي لا ضرورة لها(٣١) . ولست أريد أيضاً أن أتحدث باسمه (أي باسم محمد) ، وأقل من ذلك كثيراً أن أرفع من شأنه على حساب الديانة المسيحية . ولكني على يقين من أن هناك من بين من يحمِّلون الديانة التركية مسئولية هذا أو ذاك من الأخطاء قلة قليلة جداً ممن اطلع على القرآن ، وأن هناك أيضاً قلة قليلة جداً من بين هؤلاء الذين قرءوه كان لديهم القصد لإعطاء كلمات (القرآن) معنى معقولاً يمكن للمرء أن يفهمه . وفي وسعي -إذا كان هذا مقصدي الأساسي- أن أبين أفضل ما في الدين الطبيعي من القرآن معروضاً بوضوح ومعبراً عنه إلى حد ما تعبيراً جميلاً» .

« وأعتقد أنني سأجد بسهولة الاستحسان في ذلك لدى الفاهمين إذا قلت إن كل شيء جوهري في تعاليم محمد يكاد أن يؤدي إلى الدين الطبيعي . وقد امتدح

العالم توماس هايد(٣٢) Thomas Hyde في كتابه (تاريخ ديانة الفرس القدماء وأصحاب مذاهب السحر ، ١٧٠٠ ، ص ٣٣) وهو من العلماء الذين يتحتم على المرء أن يعدهم من العارفين وأن يعدهم كذلك من المحايدين - امتدح محمداً بوصفه مجدداً للدين الحقيقي لإبراهيم» .

« وأما جورج سيل - الذي يعد أوثق المترجمين والمفسرين للقرآن - فإنه يبين في مقدمته للقرآن أن مبدأ تعاليم محمد يقوم على توحيد الله أو على حقيقة أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد هناك إلا إله واحد ، وأن القصد الذي يتمثل في نقل العرب المشركين من الوثنية إلى معرفة الله الواحد كان قصداً نبيلاً ومحموداً جداً ، وأن السيد (بريدو) قد زعم بلا سبب أن محمداً قد أتى للعرب بدلاً من الوثنية بدين سيء مثل الوثنية . ويقول السيد (سيل) بأن الحث على الأخلاق الطيبة والفضائل التي يشتمل عليها القرآن ، وبصفة خاصة الحث على عبادة إله واحد حق تعد أموراً ممتازة إلى حد ما لدرجة أن المسيحي يود أن يراعيها حقاً» .

وفي بداية السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر في الوقت نفسه تقريباً عالمان ألمانيان بترجمتين للقرآن من النص الأصلي قضيا في إعدادهما زمناً طويلاً وهما دافيد فريدريش ميجرلين Megerlin وفريدريش إبراهارد بويزن Boysen (ص٢١٧)(٣٣) . وقد ثبت أن جوته قد استخدم ترجمة أولهما .

٣ - جوته Goethe :

وقد اهتم جوته(٣٤) أثناء حياته كلها اهتماماً كبيراً بمحمد ، كما بين ذلك ياكوب مينور Minor بالتفصيل في كتابه «محمد لدى جوته»(٣٥) . وفي خريف عام ١٧٧٣ ظهر «نشيد محمد» وفيه يقارن جوته محمداً بنهر ينمو باستمرار ويجذب في سيره إخوته معه إلى الأب الخالد .

وفي كتابه «الشعر والحقيقة» يقول جوته إن هذا النشيد المدحى كان قد قصد

به في الأصل أن يكون إضافة شعرية لمسرحية عن محمد كان قد خطط لها . وقد كان يريد أن يصـور فيهـا كيف تؤثـر العبقـرية في الناس عن طريق الأخلاق والعقل ، وكيف تنتصر العبقرية في ذلك وكيف تخسر .

وفي عام ١٧٩٩ عاد جوته مرة أخرى إلى الاشتغال بموضوع محمد بأن قام - بناء على رغبة الدوق كارل أوجسطس Augusts وضد إرادته هو تماماً - بترجمة مسرحية فولتير عن محمد وإعدادها للمسرح .

وهناك أخيراً أكثر من اثنتي عشرة قصيدة من أشعاره في «الديوان الشرقي الغربي» تهتم بمحمد وبالقرآن . وفي الملاحظات والمقالات حول هذا الديوان يعود جوته -بوصفه مؤرخاً- للحديث عن محمد وتعاليمه .

٤ - جيبون Gibbon :

وفي السبعينـات من القـرن الثـامن عشر ظهـر أيضـاً الكتـاب الشهـير لجيبون(٣٦) عن «تاريخ انهيار وغروب الدولة الرومانية» . ويتخذ جيبون إزاء محمد نفس الموقف الذي اتخذه توربين والذي يتمثل في أن مآثر محمد قد رفع من شأنها -في رأيه- تشويهات المسيحيين غير الحكيمة أكثر بكثير مما حقرت منها . ولا يريد جيبون أن يقرر أيضاً ما إذا كان محمد متحمساً أو دجالاً لأنه ليست هناك إلا خطوة واحدة فقط من التحمس إلى الدجل(٣٧) .

٥ - هردر Herder :

وعلى العكس من ذلك فإنه لم يكن هناك مجال للشك لدى هردر(٣٨) في أن محمداً كان في الحقيقة متحمساً Schwärmer . ويصف هردر محمداً بأنه : «مزيج خاص من كل ما يمكن أن تعطيه الأمة والقبيلة والزمان والمكان . فقد كان تاجراً

ونبياً وخطيباً وشاعراً وبطلاً ومشرعاً ، وكل ذلك حسب الطريقة العربية» .

ويبـدو أن سبب نبوته يتمثل في البغض لشناعة عبادة الأصنام والتحمس لتعـاليم توحيد الله وطريقة التعبد له بالطهارة والذكر والعمل الصالح . «وقد كانت التقاليد الفاسدة لليهودية والمسيحية ، وطريقة التفكير الشاعرية لأمته ولغة قبيلته ومواهبه الشخصية - كانت كلها كأنها الأجنحة التي حلقت به فوق نفسه وخارج نفسه» .

ولكن هردر يعبر عن حكمه على القرآن على النحو التالي :

« هذا الخليط الفريد من فن الشعر وحسن البيان والجهل والذكاء والتكبر هو مرآة نفسه التي تبين مواهبه ونقائصه وميوله وأخطاءه وخداع نفسه والمعونات الوقتية التي خدع بها نفسه وخدع الآخرين ، وذلك (كله) بدرجة أكثر وضوحاً مما يتبين في أي قرآن آخر لنبي من الأنبياء»(٣٩) .

٦ - أولزنر Oelsner :

وعلى أكتاف هردر يبرز أولزنر في بداية القرن التاسع عشر بكتابه الذي نال به أحد الجوائز في عام ١٩٠٨ . وعنده يعد محمد في الأصل متحمساً وجد الدليل على بعثته في قوة اعتقاده فقط ، ومن السهل أن يخلط المرء بينه وبين مجرد إنسان دجـال . وإذا لم تكن هنـاك أيضاً أغراض طموحية قد عملت على تحريكه في البداية فإنها قد أتت في أعقاب الحماس . وبنفس القدر الذي برد فيه الحماس لقضية الله أو قضية الـوطن اشتد لديه الغرض الأناني عن طريق كل الوسائل المساعدة التي أكسبها له حماسه الناري السابق . وبطبيعة الحال لا يمكن تحديد التوقيت الذي انتهى فيه خداع الذات وبدأ فيه الدجل تحديداً دقيقاً(٤٠) .

ويصف أولـزنر محمداً بالتفصيل بأنه الداعي للإله الواحد وبأنه أستاذ في

الدبلوماسية وبأنه رجل دولة وقائد جيش عبقري . ولكن بمرور الزمن تحول دينه من دين يدعو للسلام ويمقت الحرب إلى دين للسيف ، وإن كان أولزنر أيضاً – كما كان فولتير من قبله – لا يرى إطلاقاً أن النجاحات التي حققها الإسلام يعود الفضل فيها إلى السيف وحده .

٧ – رينو Reinaud :

وقد قدم رينو(٤١) للبحث في حياة محمد إسهاماً يمتاز بقيمة خاصة في العرض الموجز الذي قدمه عن حياة محمد في كتابه «الآثار الفارسية والعربية والتركية في ديوان السيد الدوق دوبلاكا» (باريس ١٨٢٨) . وقد قام رينو في عام ١٨٦٠ بإكمال هذا العرض الموجز بصورة هامة على أساس ما صدر منذئذ من مراجع ، ونشره كمقال ضمن «تراجم عامة جديدة» التي أصدرها ديدو Didot .

وفي هذه المقالة يقدم رينو في البداية وصفاً تفصيلياً لحياة محمد بناء على أقدم وأوثق الشواهد والأدلة ، وبصفة خاصة بناء على القرآن الذي يعد أهم مصدر معاصر لمحمد ، ثم يرسم رينو صورة واضحة لشخصية النبي ؛ ويتبع ذلك بوصف للمصادر الرئيسية لحياة محمد وتعاليمه وأولها الحديث وأقدم التراجم العربية ، ثم يصف رينو القرآن بتفصيل خاص . وبالإضافة إلى ذلك يتناول بعض مسائل جزئية هامة من مسائل البحث في حياة محمد ، ومن أمثلة ذلك :

هل كان محمد مصاباً بالصرع ؟

كيف كان محمد يتلقى الوحي ؟

هل كان محمد يستطيع الكتابة ؟

وفي النهاية يتناول رينو علاقة محمد بالملك جبريل ويتناول أهم تفاسير القرآن وأهم النشرات والترجمات للقرآن . وقد أضفى البيان الوافر للمراجع على المقالة

قيمة خاصة ، تلك المقالة التي قدمت صورة ممتازة لمستوى البحث في حياة محمد في عام ١٨٦٠ .

٨ - هامر برجشتال Hammer – Purgstall :

أما المستشرق الشهير يوسف فوق هامر - بور جشتال(٤٢) - الذي كان لمؤلفاته تأثير قوي على جوته - فقد تناول محمداً أيضاً في المقام الأول في كتابه «صور لحياة الحكام المسلمين العظام» . وقد عرف برجشتال جزءاً فقط من سيرة ابن هشام . وفي مقابل ذلك كانت أمامه ثلاث من الكتب الأخرى التي استخدمت هنا للمرة الأولى من جانب أحد الأوربيين وهي : «الخميس» للحسين الديار بكرى(٤٣) ، ووصف لحياة محمد باللغة الفارسية من تأليف عبد الله ، والترجمة التركية لقصص النبي من تأليف إبراهيم الحلبي(٤٤) والتي طبعت في القاهرة عام ١٨٣٣ .

ويلخص هامر برجشتال حكمه على محمد في نهاية كتابه على النحو التالي :

« على الرغم من ضلال شهوانيته ، وعلى الرغم من الجرائم التي سولتها لنفسه حدة الطبع ، وبصفة خاصة الثأر لشرفه المهان عن طريق السخرية والاستهزاء(٤٥) ، وعلى الرغم من وجهة النظر المتناقضة التي عبر عنها مؤرخون مشهودون ومستشرقون والتي تتمثل في أن محمداً لم يكن إلا مجرد كذاب ودجال من منطلق حبه للسيطرة ، على الرغم من كل ذلك فإننا يجب أن نثبت على رأينا وهو أن محمداً لم ينطلق فقط من الفكرة العظيمة التي تتمثل في هداية شعبه من ضلال الوثنية إلى الطريق المستقيم بعبادة الله وحده ، بل كان يتمتع (أيضاً) بمواهب شعرية ومشاعر دينية حية ، وكان مقتنعاً ببعثته في ساعات حماسه ، ورأى - كما رأى غيره من الأنبياء الذين سبقوه - أنه أداة السماء لهداية شعبه ؛ وأنه مؤسس

واحد من الأديان الثلاثة التي انتشرت من مصر وسوريا وبلاد العرب إلى كل بقاع الأرض وأنه خاتم الأنبياء واللبنة الأخيرة» .

٩ - كارلايل Carlyle :

وفي عام ١٨٤٠ ظهر الكتاب الشهير لكارلايل(٤٦) «حول الأبطال وتقدير الأبطال» الذي خصص فيه المحاضرة الثانية للحديث عن محمد وعن الإسلام . وكارلايل لا يعتبر محمداً أحق الأنبياء ، ولكن يعتبره نبياً حقيقياً . أما الرأي السائد عن حقيقة محمد والذي يتمثل في أنه كان دجالاً متعمداً وأن دينه عبارة عن خليط من الدجل الطبي والإسفاف فإن كارلايل يعتبره رأياً باطلاً .

«فالأكاذيب التي عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول هذا الرجل (يقصد محمداً) لا تسب أحداً غيرنا» . وأكثر من ذلك يصف كارلايل محمداً بأنه كان «نفساً عظيمة وهادئة ؛ لقد كان واحداً من هؤلاء الذين استطاعوا أن يأخذوا الأمور بجدية ، والذين وجهتهم الطبيعة نفسها لكي يكونوا مستقيمين» . فالأصالة والاستقامة هما الصفتان المميزتان لأخلاقه . ولكن هذه الاستقامة كانت تشتمل على شيء إلهي ، «فكلمة مثل هذا الإنسان هي صوت مباشر من قلب الطبيعة الحقيقية» .

ولم يكن محمد في حياته الشخصية من عشاق اللذة على الإطلاق . فقد كان متاع بيته يعد من أكثر الأمور اعتدلاً . ومع ذلك «فلم يحظ أي قيصر بتاجه بالطاعة مثلما حظي هذا الرجل بردائه الذي كان يرقعه بيده» .

أما القرآن فإن كارلايل يطلق عليه أنه «بلبلة ثقيلة ومحيرة ، فهو ساذج ومجدب ، يشتمل على تكرير وإسهاب وتشابك لاحد له ، وهو جاف وغير ناضج ؛ وباختصار هو سخف لا يطاق»(٤٧) .

ومع ذلك تكمن فيه قيمة أخرى تختلف تماماً عن القيمة الأدبية . فهو بمثابة تخمر مبهم لنفس إنسانية كبيرة وساذجة ، غير ناضجة وغير مثقفة ولم تكن تستطيع حتى أن تقرأ ؛ ولكنها نفس جادة وتفيض حماساً وتسعى سعياً جباراً لكي تعبر عن ذاتها في كلمات» .

(د) الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد في القرنين التاسع عشر والعشرين

١ - جوستاف فايل Weil :

لقد افتتح عام ١٨٤٣ حقبة جديدة في البحث في حياة محمد . فقد ظهر في هذا العام أول عرض تاريخي نقدي لحياة محمد من تأليف جوستاف فايل(٤٨) . وكانت كل الكتابات عن حياة محمد حتى ذلك الوقت لا تزال تستند باستمرار بدرجة تقل أو تكثر على كتاب جان جانييه الذي ظهر قبل ذلك بقرن من الزمان . ولكن جانييه - كما رأينا (ص ١٧١)(٤٩) - لم يضع لنفسه مهمة وصف محمد كما كان ، بل كان يكتفي بترجمة المصادر العربية ويضعها ببساطة بجوار بعضها دون أي نقد . ولم يخطر ببال أحد ممن جاءوا بعده أن يقارنوا الترجمة التي قدمها بالنصوص الأصلية ولم يخضعوا مضمونها لنقد تاريخي . فقد أخذ كل منهم منها ما استطاع أن يستخدمه في كتاباته . وإذا حدث أن استخدمت بعد ذلك مصادر أخرى لسيرة محمد غير تلك التي كانت متوفرة لجانييه فإن ذلك كان يحدث بسطحية وغفلة لا تليقان بالتاريخ .

ويتمثل الفضل الكبير لفايل في أنه أول من قام بالمحاولة التالية :

أولاً : بحث ما قرره العرب حول مؤسس الإسلام بحثاً نقدياً وعزل الوقائع

التاريخية الموثوق بها من الأساطير المتأخرة .

ثانياً : بحث طبيعة محمد بوصفه إنساناً ونبياً ومشرعاً دون الوقوع تحت أسر مذهبي .

ثالثاً : وأخيراً ، ترتيب القرآن - الذي يمثل مزيجاً مختلف الألوان من الأناشيد والصلوات والأساطير والعقائد والمواعظ والقوانين والتنظيمات - ترتيباً زمنياً .

ومن أجل هذا الغرض درس فايل القرآن بتفسير الجلالين (ص ٢٢٧)(٥٠) ، وبالهوامش العلمية لكل من ماراتشي (ص٢١٤) وسيل (ص٢١٦)(٥١) وإن كانت هذه الهوامش ليست دائماً تعد صائبة .

وبعد ذلك أعاد فايل قراءة تاريخ أبي الفداء من جديد (ص١٢٨)(٥٢) ، وكان نويل فرجيه(٥٣) Noël des Vergers قد بذل في هذا الكتاب جهداً مشكوراً كناشر ومترجم وشارح . وفضلاً عن ذلك درس فايل بالإضافة إلى جانبيه مختلف السير الأوربية الصغيرة لحياة محمد ، وبوجه خاص تلك التي كتبها رينو (ص١٧٥)(٥٤) وما بعدها) ؛ وقرأ أيضاً مؤلفات جايجر Geiger (ص ١٠١(٥٥) وما بعدها) ، ومؤلفات جيروك Gerock (ص ١٠٩(٥٦) وما بعدها) عن علاقة المذهب المحمدي باليهودية والمسيحية .

وأخيراً جمع فايل شيئاً فشيئاً ما تضمنته عن محمد مؤلفات كل من هوتنجر وريلاند وبوكوك ، ومذكرات أكاديمية باريس ومجلة توبنجن للاهوت وغير ذلك من مؤلفات أخرى مشابهة .

ولكن فايل لم يكتف بذلك ، فقد بحث أيضاً عن مصادر شرقية جديدة تماماً . وقام من أجل هذه الغاية برحلة إلى جوتا Gotha . وبعد فحص دقيق للمخطوطات المختلفة التي تملكها المكتبة هناك عن محمد ، بدا له أن أكثرها فائدة

بالنسبة لهذه الغاية كتاب «إنسان العيون» لمؤلفه علي الحلبي(٥٧) في أربعة مجلدات كبيرة ، وكتاب «الخميس» لحسين بن محمد بن الحسن الديار بكري في مجلدين كبيرين .

صحيح أن هذين المؤلفين قد عاشا في القرن السادس عشر ، ولكن نظراً لأنهما لم يغترفا المضمون من أقدم المصادر فحسب ، بل التزما أيضاً بالكلمات من هذه المصادر ، وجمعا بأعظم قدر من الدقة كل ما وجداه عند السابقين من القرن الثاني للهجرة حتى عصرهما - نظر لذلك فإنهما يمكن - حسب رأي فايل - أن يوضعا بجانب أقدم المؤلفين من حيث الثقة بهما .

وفيما بعد حصل فايل من الأستاذ إفالد(٥٨) Ewald على مخطوط بالغ الأهمية هو : سيرة الرسول لابن هشام (ص١٢٩) . وأخيراً حصل من الأستاذ رينو من باريس على الشرح التركي للمقاطع الثلاثة والستين التي لخص فيها إبراهيم الحلبي سيرة محمد .

وعلى هذا النحو الذي أصبح فيه فايل مزوداً بأفضل الوسائل المساعدة قام في البداية بنقد صارم للمصادر ، ثم حاول أخيراً بوصفه مؤرخاً القيام بعمل متكامل من تلك المصادر التي قام بفحصها فحصاً نقدياً . وقد اعتمد هنا في عرضه على المصادر بقدر الإمكان .

وهكذا حصلنا على أول كتاب تاريخي نقدي لحياة محمد . ولكن المرء يجد بجانب ذلك (في كتاب فايل) ليس فقط الحديث عن تعاليم العقيدة ، بل يجد أيضاً عرضاً لأهم قوانين العبادة وقوانين الأحوال المدنية والجنائية وقوانين الدولة في الإسلام وذلك في علاقتها بالحياة الخارجية لمحمد . أما حديث فايل عن القرآن في القسم الأخير من كتابه فقد قام في السنوات التالية لذلك بإكماله في كتابه «مقدمة تاريخية نقدية في القرآن» (ص ٢٢١)(٥٩) . كما أن بحثه عن «الأساطير

التي أخذها المسلمون من الكتاب المقدس» - الذي ظهر عام ١٨٤٥ - يشكل أيضاً إضافة مكملة في جوانب معينة لمؤلفه الرئيسي ، وتشتمل الملحقات بصفة أساسية على اقتباسات مترجمة ترجمة أمينة من المصادر ، وبصفة خاصة اقتباسات من كتاب إبراهيم الحلبي ، بوصفها أسانيد للدعاوي التي كانت تعد جديدة أو تلك التي كانت حتى ذلك الحين محل نزاع .

٢ - كوسان دي برسيفال Perceval :

أما حديث كوسان دي برسيفال(٦٠) عن محمد في المجلد الثالث من كتابه «المقالات» فإنه لا يشكل عملاً مكملاً لعمل فايل النقدي . فكوسان كثيراً ما يروي ما تقوله المصادر أكثر من اهتمامه بالبحث في استقلال . لقد كان حقاً مزوداً بمعارف لغوية أكثر عمقاً ودراسات تاريخية أولية أفضل من أسلافه ، وكان تحت يده أيضاً مراجع مصدرية أقدم وأوثق (مما كان لدى غيره) . وهكذا فإن فضله الرئيسي لا يتمثل في تنمية البحث النقدي ، بل يتمثل في أنه في الغالب يجعل المصادر الأصيلة هي التي تتحدث .

٣ - إرفينج Irving :

أما حياة محمد التي كتبها واشنطن إرفينج(٦١) - على أساس من مصادر أسبانية وكتاب أبي الفداء لجانييه وكتابات جوستاف فايل - فإنها على ما فيها من صياغة براقة ليس لها أهمية علمية .

٤ - رينان Renan :

وعلى أساس من أعمال فايل وكوسان دي برسيفال قدم رينان(٦٢) رؤية

مستفيضة عن محمد وعن نشأة الإسلام ، ولكنه لم يأت في ذلك بجديد . ومصادر نشأة الإسلام - التي تبدو لنا اليوم بعد بحث شاق لا نهاية له أكثر إبهاماً وغموضاً من أي وقت آخر - تبدو لرينان واضحة لدرجة أنه يتحدث عن «دين نشأ في وضح النهار» .

أما الشيء الهام (الذي قدمه رينان) فهو تلك النظرة السريعة على البحث في حياة محمد وتقديم بعض الملامح المقارنة من تاريخ الأديان العام . ويصف رينان الإسلام بأنه «دين طبيعي عقلي يتصف بالجدية والليبرالية والبرود» .

٥ - إرنست ماير E. Meier :

ويعتمد على فايل أيضاً إرنست ماير(٦٣) في مقالته التي بين في بعض نقاطها كيف يمكن أن نحصل أيضاً على أكثر المعارف أهمية عن الحياة العقلية لمحمد وعن أخلاقه من خلال فهم أكثر دقة للقرآن .

٦ - وليم موير W. Muir :

وترجع السيرة الكبرى الثانية لحياة محمد - بجانب فايل - إلى العالم الانجليزي وليم موير(٦٤) . وقد انبثقت من مقالات نشرها المؤلف منذ عام ١٨٥٣ في مجلة كلكتا «Calcutta Review» . ويشتمل المجلد الأول في البداية على المقدمة التي تتكون من الفصول الأربعة التالية :

١ - المصادر المتعلقة بسيرة حياة محمد .

٢ - السكان الأصليون وتجارة العرب القدامى وفقاً للكتاب المقدس والمؤلفين القدماء .

٣ - تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام حسب المؤلفات التراثية المحمدية .

٤ - أجداد محمد وتاريخ مدينةمكة من منتصف القرن الخامس حتى مولد محمد في عام ٥٧٠ ميلادية .

وبعد المقدمة في المجلد الأول يأتي الفصل الأول من السيرة الحقيقية التي تستكمل في المجلدات الثلاثة التالية في سبع وثلاثين فصلاً حتى تصل إلى النهاية . وفي الفصول التي تتعلق بالأحداث الخارجية لا يقدم لنا المؤلف شيئاً جديداً إلا القليل . ويظهر المؤلف كباحث متعمق في الفصل الثالث «عقيدة محمد في إلهاماته أو وحيه» . ومن الفصول الجيدة أيضاً الفصل السابع «علاقة الإسلام بالمسيحية» ، والفصل السابع والثلاثون «شخص محمد وأخلاقه» .

وقد كان من الممكن اختصار الكتاب كثيراً بصفة خاصة في الحديث عن التاريخ الخارجي المعروف المتعلق بمحمد ، كما أن القسم الأكبر من المجلد الأول الذي يتصل بالتاريخ الأقدم لبلاد العرب قد استقاه المؤلف من كتاب كوسان دي برسيفال . ولكن الفصل الأول من المقدمة يمتاز بقيمة كبيرة ، هذا الفصل الذي يهتم بمصادر سيرة محمد ويبحث في درجات وثوقها المختلفة . وعلى الرغم من موقف المؤلف المصبوغ بصبغة مذهبية حادة فإن عرضه (للموضوعات) كان باستمرار عرضاً واضحاً وجديراً بالتقدير .

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من عام ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ ، وظهرت الطبعة الثانية - التي اختصرت فيها بعض النقاط - في عام ١٨٧٦ ، وظهرت الطبعة الثالثة في مجلد واحد في عام ١٨٩٤ ، ثم ظهرت طبعة جديدة منقحة في عام ١٩١٢ ، ولكن هذا التنقيح لم يمتد إلا إلى تصحيح كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية وتصحيح الاقتباسات وإضافة بعض الإشارات في الهوامش .

أما كتاب موير «محمد والإسلام» فهو اختصار للكتاب الكبير «حياة

محمـد» . ويدين المؤلف بالفضل كثيراً إلى كل من فايل واشبرنجر . وقد أخذ الصور إلى حد ما من الكتاب المصور الرائع «مدنية العرب» الذي ألفه ج. لوبون Le Bon .

٧ - **ألوز اشبرنجر** A. Sprenger :

وأما الكتاب الثالث الكبير الذي تم تأليفه طبقاً لوجهات نظر تاريخية نقدية فقد كان من تأليف ألوزا شبرنجر(٦٥) . وكان اشبرنجر قد نشر في عام ١٨٥١ مؤلفاً عن حياة محمد كتبه بالإنجليزية ، ولكن لم يظهر من هذا المؤلف إلا القسم الأول فقط . ويشتمـل هذا القسم الأول -بعـد مدخل قصير- على الكتابين الأولـين . وقـد تنـاول في أولهما في فصول ثلاثة تاريخ مكة ، وأجداد محمد ؛ والأساطير الإسلامية حول هذين الموضوعين ؛ ومصادر سيرة محمد . وروى في الكتاب الثاني في فصول ثلاثة حياة محمد من مولده حتى وصوله إلى المدينة .

وبعد ذلك بعشر سنوات ظهر المجلد الأول من كتابه الكبير عن سيرة محمد «بنـاء على مصـادر لم تستخدم من قبل إلا قليلاً جداً» . وفي المقدمة يتحدث اشبرنجر عن نشأة كتابه والغاية منه . وقد قضى المؤلف أجمل سنوات عمره في الشرق ، وتعرف بخبرته على البلاد التي تمثل موضوع بحوثه . وعمل مدة اثنى عشر عاماً مشرفاً على المعاهد العليا الإسلامية في الهند العليا .

وقد استغل هذا الوقت لكي يجمع بلا كلل مخطوطات ومطبوعات شرقية ، وليتعمق في لغة وروح الشرقيين . وبعد أن انتهت سنوات التجول تمثلت مهمته في الاشتغال بالمادة (العلمية) التي جمعها في الشرق (بهدف كتابة) تاريخ نشأة ذلك الدين العالمي الذي نملك وحدنا مصادر عن أصل نشأته(٦٦) .

وقد كانت هناك نظريات عديدة تم وضعها حول محمد ، فقد كان موير

يعتقد أن الشيطان قد مارس لعبته مع محمد ، وكان كارلايل يرى فيه إنساناً فذا . وفي ألمانيا سلب المرء من كلمة نبي كل ما تعنيه ثم زعم أنه كان نبياً .

ويريد اشبرنجر أن يبرهن على أن محمداً لم يكن لا بطلاً بالمعنى الذي يقصده كارلايل ولا أداة للشيطان . وقد أدت نتائج بحوثه إلى اقتناعه بأن الإسلام «لم ينبع من النسب والحسب ، ولا من إرادة اللحم(٦٧) ولا من إرادة رجل» ، بل من متطلبات العصر . وإذا كان كارلايل قد قصد أن يقول عن محمد كل ما هو خير مما يستطيع المرء إثباته ، فإن اشبرنجر ينهج نهجاً مضاداً تماماً ، ويريد أن يلفت النظر عند كل مناسبة إلى الضعف الإنساني لدى محمد . وحيث أنه ليست لدينا أخبار عنه غير تلك الأخبار التي لدينا من جانب محبيه فإنه «يجب على كاتب السيرة أن يقوم بالدور الخبيث لممثل الاتهام Advocatus Diaboli ، وأن يستخرج مساويء أخلاقه من كلمات مدح محبيه»(٦٨) .

وقد قام اشبرنجر يقيناً بتنفيذ هذا الدور ببراعة! ومن خلال مهنته كطبيب ينظر في أخلاق محمد بشغف من وجهة النظر الطبية وينتهي إلى الاقتناع بأن محمداً كان إنساناً هستيرياً . وقد عارض سنوك هورجرونيه ذلك (قائلاً) : إن الأهمية الخاصة لمحمد يجب أن تتمثل في هذا الذي يميزه عن غيره من الهستيريين ، وليس في الأحوال المرضية التي يشترك معهم فيها(٦٩) .

وإذا كان هذا الرأي أيضاً (من جانب اشبرنجر) عن محمد لا يعد رأياً متيناً فإن كتاب اشبرنجر مع ذلك قد أصبحت له أهمية كبيرة بالنسبة للبحث الحديث كله في موضوع محمد . وقد خص اشبرنجر القرآن بصفة خاصة بأعظم قدر من الاهتمام بوصفه المصدر الرئيسي لحياة محمد . ويصرح في فخر بأنه «قد مهد الطريق لفهم القرآن» . ويشتمل كتابه على ترجمته المستقلة لثلثي القرآن تقريباً .

وطبقاً لمقصد اشبرنجر فإن كتابه قد خصص لطبقتين مختلفتين تماماً من

القـراء : للباحث الذي لا يفهم العربية ، ومع ذلك يرغب في دراسة متعمقة لطبيعة الإسلام ؛ وللقاريء غير المتعمق الذي يكتفي بنتائج بحوث الآخرين .

ولكن فيلها وزن كان على حق في حكمه (على عمل اشبرنجر على النحو التالي) :

«يعد كتاب اشبرنجر ينبوعاً ثرياً في المادة والأفكار بالنسبة للدارسين للعلوم العربية القادرين على التمييز ؛ ولكنه غير مناسب إطلاقاً للإطلاع بالنسبة لدائرة أوسع من جمهور الناس على الرغم مما يبدو من أنه قد خصص لذلك» . (محمد في المـدينـة ص ٢٦) . ولكن فيلها وزن لا يريد أيضاً أن ينكر الأهمية العالية لكتاب اشبرنجر :

«على العكس من الطريقةالتي كانت سائدة إلى حد ما زمناً طويلاً في ألمانيا ، والتي كانت تنظر إلى الأدب العربي على أنه بمثابة مجموعة كبيرة من الأمثلة لقواعد النحو فإن اشبرنجر قد كان له تأثير منعش إلى أقصى حد عن طريق شعوره الحي والسليم بالنسبـة للأشياء ، وذلـك باهتمامه المباشر والأصيل بمضمون التراث اهتماماً بعيداً عن النظرة التخصصية الضيقة وعن اتباع مذهبية معينة . فهو رجل طبيعي صميم ، وفي ذلك تكمن قوته ، مع كل ألوان الضعف التي تلازمه أيضاً من أجل ذلك» . (محمد في المدينة ص٢٤) .

وفي الختام نورد بياناً قصيراً بمضمون المجلدات الثلاثة :

يسير المجلد الأول (في البحث) حتى عام ٦١٦م ، فيصف شباب محمد والسنوات الأولى لظهوره كنبي . أما المجلد الثاني فإنه يتناول في تسعة فصول الفترة الواقعة بين الهجرة الأولى إلى الحبشة عام ٦١٦م حتى الهروب(٧٠) إلى المدينة . ويشتمل المجلد الثالث في البداية على مقدمة ضافية تعرفنا -بعد إيراد بعض المـلاحـظات التمهيدية - بالمصـادر التي اعتمد عليها المؤلف . فالقرآن

نفسه ، وبعض الوثائق القليلة ، وكتّاب سيرة محمد ، والسنة ، وتراث الأنساب ، كل ذلك كان يقدم مادة ثرية جداً للمؤلف ساعدته على تأليفه كتابه .

والمضمون الحقيقي للمجلد يتكون من ثمانية فصول يتناول فيها ظهور محمد في المدينة بوصفه مشرعاً وفاتحا وحاكماً حتى وفاته . ويصاحب كل فصل استطرادات مسهبة . والعرض مستفيض جداً للأسف ، ويشكل «مزيجاً غير مستساغ من حكايات وتأملات نقدية» . (فيلها وزن) .

٨ - نولدكه Nöldeke :

لقد جاءت فترة الستينات من القرن التاسع عشر - وهي فترة تعد ذات أهمية كبيرة بالنسبة للبحث في حياة محمد - جاءت بعرض شعبي ممتاز لحياة محمد كتبه مؤلف «تاريخ القرآن» . ويعبر نولدكه(٧١) نفسه في المقدمة عن الغاية من كتابه ، كما يعبر كذلك عن موقفه من أسلافه فيقول :

«على الرغم من البحوث التي أجريت بحماس بالغ في العشرين سنة الأخيرة عن محمد وعن أصل نشأة الإسلام - وأخص بالذكر هنا فقط تلك المؤلفات الرائعة لكل من فايل وكوسان دي برسيفال وموير واشبرنجر - فإن مجال البحث لم يختتم إطلاقاً ، ولهذا فإني مع ذلك كله أعتقد بأن عرضاً شعبياً لتاريخ محمد مرتكزاً على المصادر يعد عملاً مناسباً للعصر وأمراً مشكوراً . وقد تجنبت عن عمد كل المناقشات العلمية ، وكذلك كل المجادلات ، ولم أذكر من الاقتباسات إلا حوالي ستة اقتباسات فقط . ومع ذلك فإنه يصح لي أن أؤكد أن عملي يستند تماماً على بحثي الخاص للمصادر . والأسس العلمية لهذا العمل هي في جوهرها تلك الأسس التي ترتكز عليها الفصول الأولى من كتابي «تاريخ القرآن» .

وقد وضعت أمام عيني أولاً أمثال هؤلاء القراء الذين لا يعرفون اللغة

العربية ، ولكني آمل على الأقل أن تكون بعض الآراء ووجهات النظر المطروحة هنا مثار اهتمام المستشرقين أيضاً . وقد أوليت الأحوال السياسية والشعبية قدراً خاصاً من الاهتمام ؛ وأفادتني في ذلك بصورة أساسية دراستي الطويلة والمتواصلة للشعر العربي القديم . وهناك قصور يجب أن أعترف به ويتمثل في عدم الدقة في الترتيب الزمني للسنين العشر الأخيرة من حياة محمد . ولم أستطع أن أستخدم من مؤلف اشبرنجر العلمي إلا القسم الأول فقط عند كتابة هذا الكتاب . ويمتاز مؤلف اشبرنجر بعمقه وحدة ذكائه وعرضه الطريف ، ولكني كثيراً ما اضطررت أيضاً إلى أن أخالف آراءه» .

ويقع كتاب نولدكه في سبعة فصول (على النحو التالي) :

١ - المقدمة . حياة محمد حتى ظهوره النبوي .

٢ - من الظهور النبوي لمحمد حتى هروبه إلى المدينة .

٣ - من الهروب حتى موقعة أحد .

٤ - من موقعة أحد حتى حصار المدينة .

٥ - من حصار المدينة حتى الاستيلاء على مكة .

٦ - من الاستيلاء على مكة حتى موت محمد .

٧ - أخلاق محمد .

وفي تقديره وحكمه على محمد يجتهد نولدكه في أن يتم ذلك في موضوعية هادئة على العكس من طريقة اشبرنجر الذاتية والحادة . ولكي يكون المرء منصفاً لمحمد فإنه يتحتم عليه أن ينظر إليه في حياته ليس فقط بوصفه نبياً وواعظاً وأميراً ، بل ينظر إليه أيضاً في تعامله مع أتباعه وأصدقائه وفي حياته اليومية . فهناك ملامح ثابتة لا تحصى تظهره هنا في ضوء جميل . أما ما يتعلق بأخطائه فإنه

يجب على المرء أن يفكر في أن هذه الأخطاء كانت في قدر كبير منها أخطاء عصره وشعبه ، وأنه كان يبدي بجانب ذلك شمائل على أقصى درجة من النبل ، وأنه هو نفسه كان مقتنعاً بمهمته لإنقاذ إخوانه في الإنسانية من العذاب الأبدي عن طريق هدايتهم إلى العقيدة الصحيحة ، ولجعلهم مشاركين في السعادة السماوية .

٩ - كريل Krehl :

بعد التراجم الكبيرةوالعميقة لحياة محمد من جانب كل من فايل وكوسان دي برسيفال وموير واشبرنجر ونولدكه طرأت حالة من الركود في البحث (في هذا المجال) . ثم جاءت الثمانينات من القرن التاسع عشر مرة أخرى بكتابين كبيرين عن حياة محمد ظهرا متتابعين بفارق زمني قصير وقام بتأليفهما لودولف كريل(٧٢) وأوجست موللر .

ويحاول كريل أن يبحث بصفة رئيسية التطور الديني لمحمد عن طريق الأحداث السياسية ، ويسعى جاهداً في أن يكون محايداً بقدر الإمكان في هذا البحث . ويعترف شاكراً بأن دراسة الكتب الكبرى لعلم الحديث ، مثل دراسة صحيحي البخاري ومسلم - اللذين يشتملان على الكثير الذي لا يحصى من الملامح المميزة جداً لمحمد وأقواله الثابتة بطرق جيدة - هذه الدراسة قد ساعدته في بحثه بصورة أساسية .

ومع أنه يعلم يقيناً أن هذه المأثورات غالباً ما اصطبغت بأغراض لصالح محمد إلا أنها رغم كل ذلك تظل في رأيه مصدراً رئيسياً لحياة محمد . وبناء عليها يظهر مؤسس الإسلام في ضوء آخر ، وهو ضوء أفضل إلى حد بعيد . ومع كل أخطائه يجب أن يعترف المرء بأن محمداً هو مؤسس المدنية العربية ، وأنه قد وضع

شعبه تماماً وبلا جدال على درجة عليا من الدين . «وإن متحمساً دجالاً ومرائياً وإنساناً يقوده طموحه الأناني فقط لم يكن له أن ينجح في ذلك بكل تأكيد . فالقوة التي بناها كانت سرعان ما تنهار بالتأكيد مرة أخرى بعد موته إذا لم تكن قد بنيت على فكـرة عليا وعـلى تعاليم لا تزال تشغل اليوم فكرياً وروحياً ملايين الناس وترضيهم بطريقتها ، وجاء على إثرها عبر القرون تراث واسع المدى جداً وإلى حد ما غني بالأفكار ويشهد بثقافة عقلية عالية» .

أمـا القسم الثـاني (من كتـاب كريل وهـو) «التعاليم» فلم ينشر ، ولكن المخطوط موجود ضمن ما خلفه كريل . وهناك فقط بعض النقاط الجزئية للتعاليم (الإسلامية) تناولها كريل بالبحث وقام بنشرها (ص ٢٦١ وما بعدها)(٧٣) .

١٠ - أوجست موللر A. Müller :

قام أوجست موللر(٧٤) في إطار عرضه الشامل للإسلام بتقديم عرض لحياة محمد أيضاً ينبني على معرفة عميقة بالمصادر الأصلية ، ويتضمن حكماً موزوناً تماماً على محمد . وبالمعنى التاريخي الخالص -كما يقول- يكون من الصعب على المرء أن ينكر على محمد اسم النبي . حقاً لا يستطيع المرء أن ينكر أنه كان واقعاً تحت حالات عصبية مختلفـة نتيجـة لمزاجـه الـذي كان سريع الانفعال بطريقة غير عادية ، وقد ارتفعت هذه الحالات في بعض الأحيان إلى درجة الهلوسة . ولكن هذه الحـالات لم تكن أبـداً ذات طبيعـة صرعية ، بل كانت تتلاءم أيضاً مع الانفعالات العصبية المعروفة (التي تعترى) الأشخاص من ذوي الحس المرهف دينياً . ولكن قدرته الكاملة على التمييز بصفة خاصة لم تكن تعاني تحت (وطأة) هذه الحالات . ولا يستطيع المرء أيضاً أن يشكك في إخلاصه الكامل في الفترة المكية .

وإذا كان المرء لا يستطيع أن ينكر على محمد صفة نبي حقيقي فإن موللر له مع ذلك بعض التحفظات . فهو يعيب على محمد أنه لم يدرك إلا جانباً واحداً فقط من الطبيعة الإلهية ، وأنه ينقصه تماماً مفهوم القداسة بوجه خاص ، وبذلك ينقصه الأساس لتشكيل عميق بطريقة ما لفكرة نظام أخلاقي للحياة . ثم يصدمنا لدى محمد في المدينة على وجه الخصوص أنه قد حول الدين إلى السياسة في تزايد مستمر : فقد استعان بالكذب لكي يفرض الحقيقة ، وربما كان ذلك في البداية دون وعي ، ثم بنصف وعي ، وفي النهاية بوعي كامل!(٧٥) .

وقد استخدم موللر في كتابته لقسم عظيم من تطور تعاليم محمد المدونات التي كانت تحت تصرفه من مخلفات صديقه أوتولوت Otto Loth الذي كان أستاذاً في ليبتزج وتوفي للأسف مبكراً .

١١ - هوبرت جريمه H. Grimme :

أما كتاب حياة محمد الذي كتبه هوبرت جريمه(٧٦) - وأعقبه بعد ذلك بثلاث سنوات بالقسم الثاني الذي يشتمل على مقدمة في القرآن ونسق علم الإلهيات القرآني (انظر ص ٢٠٠) - فإنه يعد جهداً مستقلاً جداً في مقابل المأثورات العربية ، وكذلك في مقابل المؤلفات الأوربية في السيرة . وقد استند بصفة عامة على مادة المصادر المنشورة ، ولكنه اتبع - لدى استخدامه لهذه المادة - إلى حد ما طريقة أخرى غير تلك التي اتبعها غالبية أسلافه ، وبذلك توصل في الغالب إلى نتائج مختلفة تماماً عما توصلوا إليه .

ويرى جريمه على وجه الخصوص أن من الضروري اتخاذ موقف أكثر حذراً من الأحاديث . صحيح أن مجموعات الأحاديث التي ترجع إلى زمن أقدم من غيرها بوجه خاص تشتمل على كثير مما هو حقيقي ولا غني عنه لتاريخ محمد ؛

ومن المؤكد كذلك أن التزييف المتعمد لم يعمل عمله بمثل هذه الجرأة في أي مجال من مجالات الأدب مثلما فعله هنا في هذا المجال . ولكن المرء لا يزال بعيداً عن التوصل إلى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف(٧٧) .

وفضلاً عن ذلك فإن مجموعات الأحاديث غالباً ما تقدم كثيراً جداً من الأمور التي لا أهمية لها . وأخيراً فإنها لا تقدم إلا روح الحقبة المدنية ولكنها لا تقدم إطلاقاً روح الحقبة المكية(٧٨) . ولكن من حسن الحظ أنه لا يزال يتدفق هناك مصدر قوي للحقيقة التاريخية في القرآن . وقد حاول المؤلف أن يستخدم القرآن بشكل مثمر تماماً . ولكن هناك أموراً كثيرة تحمل هنا أيضاً على الحذر . فمن الأمور التي لا تزال مثار جدل بوجه خاص قضية الترتيب الزمني للسور القرآنية . ومن أجل ذلك يقدم المؤلف في القسم الثاني فصلاً خاصاً عن «شكل السور القرآنية وتتابعها الزمني» ويصل فيه إلى بعض النتائج المخالفة(٧٩) .

ويذهب جريمه إلى القول بأن محمداً كان في المقام الأول مثيراً للفتن أو محرضاً Agitator ذكياً وسياسياً كبيراً . وفي المدينة تطور محمد -حسب رأي جريمه- في تزايد مستمر إلى دجال عن وعي بذلك(٨٠) . ولكن الأمر الجديد تماماً هو دعوى جريمه بأن محمداً عند ظهوره الأول (بدعوته) لم يكن يدعو إلى دين إطلاقاً ؛ بل كان يدعو إلى شكل من أشكال الاشتراكية . فالإسلام «لم يظهر إطلاقاً بوصفه نسقاً دينياً في الحياة ، وإنما بوصفه محاولة لشكل من أشكال الاشتراكية ليواجه ما كان سائداً إلى حد بعيد من أحوال أرضية سيئة معينة»(٨١) .

وقد كان التناقض المخيف بين الأغنياء والفقراء - والذي كان سائداً في مكة - هو الذي دفع محمداً إلى المطالبة بضرورة أن يدفع كل فرد ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين . ولكي يجد محمد آذاناً صاغية لهذه الدعوة استخدم عقيدة يوم

الحساب كوسيلة إجبار روحية .

١٢ - سنوك هورجرونيه Hurgronje :

وقد عارض هذا الرأي في محمد سنوك هورجرونيه في مقالة مسهبة في «مجلة تاريخ الأديان» . وقد تضمنت هذه المقالة تفنيداً رائعاً لرأي جريمه . فكل كتاب سيرة محمد من الأوربيين تصوروا - كما يقول هورجرونيه في اعتراضه - أن محمداً قد شعر وهو في سن الأربعين بأنه مدفوع لدعوة قومه إلى دين . وأحد هؤلاء الكتاب قد أراد أن يعطي الانطباع بأن هذا الدين كان بالنسبة لمحمد مجرد وسيلة للوصول إلى السلطان والنفوذ فحسب . وقد ذهب «موير» إلى القول بأن هذا الشيطان قد ظهر لمحمد في صورة رسول إلهي . وبالنسبة لا شبرنجر كانت دعوى الهستيرية هي التي خدمته لكي يوضح أن محمداً كان ظاهرة دينية . وأخيراً فإن المؤرخين من أمثال كارلايل الذين رأوا في محمد عبقرية فذة - كانوا مع كل اختلافاتهم على اتفاق في اعتباره عبقرية دينية .

والسؤال الكبير الذي يواجه كتاب سيرة محمد من البداية هو :

ما أصل الاصطفاء الديني لدى محمد ومن أين أخذ أفكاره الدينية ؟

إن أفكاره الرئيسية هي - مع بعض التغييرات في الشكل - تلك الأفكار التي تشترك فيها كل من اليهودية والمسيحية . وفي التفاصيل يبدي وحيه تارة الصبغة اليهودية ، وتارة أخرى الطابع المسيحي ، وتارة ثالثة يبدي أموراً متنوعة لخيال حر نسبياً مبني على أساس يهودي مسيحي .

ولكن محمداً لم تكن لديه إلا معلومات ناقصة وقاصرة عن اليهودية والمسيحية ، فلم يكن يعرف مثلاً الكتاب المقدس أو علم العقيدة الأرثوذكسية ، بل كان يعرف فقط الأدب والتراث المشكوك في صحته «Die apokryphe Literatur»

لهذين الدينين(٨٢) . وقد كان محمد فضلاً عن ذلك رجلاً أمياً : وهكذا ظلت الكتب المقـدسة اليهودية والمسيحية غريبة عنه . وعن طريق الحديث فقط مع أتباع هذين الدينين تعرف محمد عليهما كما كانا قائمين في بلاد العرب حينذاك . ويضاف إلى ذلك أن من الأمور التي تركت لديه انطباعاً خاصاً كان فن قراءة النصوص المقدسة أو فن تلاوتها وترتيلها في صلوات اليهود والمسيحيين ، خاصة وأنـه قد سمـع النـاس يقولون - واعتقد (ما يقولون) بلا حدود - أن الكتب والألـواح التي يقـرؤهـا اليهود والمسيحيون في صلواتهم والتي تتضمن شرائعهم ومؤسساتهم ليست ذات مصدر إنساني ، بل مصدرها إلهي .

ولكن كيف تكوَّن لدى محمد مفهوم الوحي ؟

في البداية لم يكن محمد يلحظ إطلاقاً الموقف العدائي الذي تتخذه الطوائف والكنائس المختلفة بعضها من بعض . فالفرق بين اليهود والمسيحيين ، ووجود الـطوائف والكنـائس العـديدة التي كانت تعـادي بعضهـا بعضاً خارج هذين الـدينـين ، كل ذلك قد بدا في التصور الساذج لمحمد أنه يرجع إلى اختلاف الأجناس أو القوميات . فقد تصور البشرية - من حيث أنها تملك نعمة الوحي - مقسمة في «جماعات» يمكن أن تتميز كتبها وألواحها في الشكل والمضمون ، ولكنها جميعاً قد جاءت وحياً من لدن إله واحد وللغاية ذاتها .

وقد تأسست كل جماعة -في رأيه- عن طريق إنسان اصطفاه الله من بين شعبه وتحمل مهمة دعوة قومه إلى كلمة الله بوصفه نبياً ومبعوثاً أو نذيراً . وهناك عدد كبـير من الأنبياء ، وليس بينهم فرق جوهـري . ولم يكن اصطفاء محمد للعرب -في نظر محمد- أمراً مختلفاً عن اصطفاء الأنبياء السابقين ، فقد كان كل منهم مختاراً لشعبه الذي ينتمي إليه(٨٣) . وهكذا كان في وسع محمد أن يفترض بلا عناء أن أتباع الدينين القائمين الموحى بهما يمكنهم أن يعترفوا به بوصفه نذيراً

مرسلاً من الله للعرب دون أن يلحق ذلك أي ضرر بمعتقداتهم (اليهودية والمسيحية) . ولكن عندما اتصل محمد باليهود في المدينة اتصالاً مباشراً كان لابد له حينئذ أن يعرف أن اليهود الحقيقيين والمسيحيين الحقيقيين لن يعترفوا إطلاقاً بأصالة بعثته الدينية .

ولكن نظراً لأنه من ناحيته كان مقتنعاً بشرعية بعثته وكان يعتقد أنها من جنس بعثة موسى وعيسى وأسلافهما ، فقد أدى به ذلك بطبيعة الحال إلى نتيجة مؤداها أن اليهود والمسيحيين قد فسروا الوحي الذي لديهم تفسيراً سيئاً . وعليه إذن أن يقوم بواجب تصحيحهم! وتلك مهمة صعبة لمن لم يستطع أن يقرأ كتبهم المقدسة ، وكانت لديه أيضاً فضلاً عن ذلك مفاهيم مشوشة عن طبيعة هذه الكتب وعن مضمونها(٨٤) .

وفي الفترة الثانية من نشاطه شرع محمد أيضاً شروعاً حقيقياً في التعرف بعض الشيء عن قرب على التاريخ التقليدي الموروث للوحي السابق ، وحصل - مع بعض التغييرات الضرورية - على ما أمكن أن يخدمه في التحرر من اليهودية والمسيحية اللتين استشهد بهما في السابق أكثر من مرة على حقيقة بعثته ، ولم يكن في ذلك الاستشهاد شيء من الحكمة(٨٥) .

ولن نقف عند المراحل الجزئية لعملية التحرر هذه ؛ وسنقتصر على إثبات أن محمداً لم يتوصل إلى حل المشكلة دفعة واحدة ، بل تم ذلك بالتدريج شيئاً فشيئاً . ففي حين كان إبراهيم يعد في الوحي السابق [الذي نزل على محمد] واحداً من أسلاف محمد العديدين فحسب ، يصبح الآن [بالنسبة لمحمد] رائده ومثله الأعلى على الإطلاق . وقد استمد إبراهيم هذه المنزلة العالية لدى محمد من أمرين توصل محمد إلى معرفتهما أولاً في المدينة . الأمر الأول يتمثل في أن إبراهيم - الذي يقدسه اليهود والمسيحيون بنفس الطريقة بوصفه رجل الله - لم يكن

يهودياً ولا مسيحياً(٨٦) . وكـون محمد قد جعل اصطفاءه مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتلك الأبـوة مكنه من تفادي اتهامات اليهود الذين رموه بأنه لم يراع شريعتهم مراعـاة تامـة ، واتهامات المسيحيين أيضاً الذين عارضوه بعقيدة الخلاص عن طريق المسيح وحده .

أما الأمر الثاني فقد كان يتمثل في أن محمداً قد عرف أن الكتاب المقدس قد جعل من إبراهيم الأب الأول للعرب . وهكذا كان محمد يميل بطبيعة الحال إلى الإستناد إلى أب الجنس الذي ينتمي هو إليه . وقد وصف محمد نفسه من الآن فصـاعداً بأنه ذلك النبي الذي جاء لإكمال العمل الذي بدأه الأبوان إبراهيم وإسماعيل . فالإسلام الذي دعا إليه محمد كان هو نفسه تماماً ذلك الذي دعا إليه إبراهيم . وقد كان إبراهيم - الأب الأول للعرب - مثل محمد تماماً مسلماً وحنيفـاً . ولكن إبـراهيم لم يكن بالنسبة لمحمد المحرر من اليهودية والمسيحية فحسب ، فقد خدم النبي الأب محمداً أيضاً في إدخال طقوس العبادة المكية في الإسلام بعد أن خلصها من بعض المراسم التي تكشف بوضوح عن أصل وثني .

وكان إبراهيم قد دفع بإسماعيل وأمه إلى بلاد العرب . وفي وسع المرء إذن أن يفترض أنهما قد جاءا إلى مكة وأسسا الكعبة هناك بناء على أمر إلهي . وهذا الأفتراض يتضمن بطبيعة الحال أن نسل إسماعيل قد أفسد بصفة عامة العبادة والدين بطريقة مزعجة .

إن صلات محمـد باليهودية والمسيحية - كما وصفناها هنا - وتاريخ تطور أسطورة إبراهيم في عقل محمد بصفة خاصة ، كل ذلك يستبعد الآن تماماً الرأي الذي يذهب إلى القول بأن دعوة محمد قد استندت إلى جماعة الحنفاء الذين كانوا من قبله يدعون إلى شيء من اليهودية والمسيحية تحت اسم دين إبراهيم(٨٧) .

وبعد أن وصف سنوك هورجرونيه صلات محمد باليهودية والمسيحية يطرح

السؤال عن الدافع المحدد لبعثته النبوية .

لقد كان المرء في السابق يرى بطريقة عامة أن محور دعوة محمد يتمثل في كفاحه ضد الوثنية لصالح (عقيدة) التوحيد الصارم . ومن المؤكد - كما يرى سنوك هورجرونيه - أن وحدة الله كانت تمثل أحد الأعمدة الرئيسية للإسلام ، وقد نالت هذه العقيدة فيما بعد أهمية متنامية باستمرار . ولكن الحماس للدفاع عن الوحدة الالهية ضد الوثنية وضد التثليث . الخ لم يكن بالنسبة لمحمد هو الدافع المحدد لبعثته النبوية . فقد كانت هناك بالأحرى منذ البداية فكرة احتلت مكان الصدارة من تفكيره وسلوكه وهي فكرة يوم الحساب . فالأمر الذي كان يقلقه هو الاقتناع بأن الناس جميعاً سوف يضطرون في يوم من الأيام للمثول أمام الله للحساب وأنه لن يكون أمامهم مخرج آخر غير باب النار أو باب الجنة(٨٨) .

وقد كانت هناك فكرتان تتنازعان في عقله على السيطرة : فمن ناحية كانت هناك فكرة محكمة عامة للناس جميعاً بعد بعث الأموات ، ومن ناحية أخرى كان هناك الخوف من المحاكمات الجزئية التي تتعرض لها من عصر إلى عصر الشعوب التي تتمرد على رسل الله . وقد كانت هذه الأفكار المتمثلة في الكارثة النهائية وبعث الأموات والحساب والنار والجنة هي التي دفعت محمداً إلى إنعام الفكر وإلى النبوة . وقد عرضت أقدم الآيات القرآنية هذه القضايا بإثارة عاطفية تكاد أن تكون في صورة وحشية . وقد اتخذت هذه القضايا فيما بعد أشكالاً أكثر ثباتاً وأكثر تقليدية . وأخيراً عندما أصبح النبي على رأس جماعة تحتم عليه أن يقوم بتنظيمها ، وعندما توقف الصراع ضد الكفار في محيطه - ظلت عقيدة العالم الآخر عنصراً أساسياً من عناصر الإسلام . ولكن التصوير المثير للعواطف بشأن يوم الحساب لم يعد يظهر في الوحي المحمدي إلا نادراً(٨٩) .

إن فكرة المحكمة الإلهية ، التي كانت فكرة مشتركة بين اليهود والمسيحيين ،

قد أرّقت محمداً وأقضت مضجعه إذن منذ البداية . ولكن اليهود والمسيحيين كانوا قد عرفوا عن طريق الوحي يقينية يوم الحساب ، وليس هذا فحسب ، بل عرفوا أيضاً الأوامر التي أعطتهم مراعاتها اليقين بأنهم سيكونون من الناجين في يوم الحساب . (أما العرب فلم يأتهم نذير) «لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك» (سورة ٢٨ آية ٤٦) .

ولم تكن المساواة التي أقرها محمد بين الشعوب أو الأجناس والطوائف الدينية تسمح له بالاعتقاد بأن وحيا من هذا الوحي السابق (في اليهودية والمسيحية) كان مقرراً لشعبه أو مقرراً له هو . فكيف إذن يتجنب محمد وقومه العذاب المقيم ؟

لقد أجابت عن هذه القضية الحياتية (المصيرية) آيات القرآن التي ينظر إليها بالإجماع على أنها أقدم الآيات سواء من جانب المسلمين الأصوليين أو من جانب النظرة النقدية أيضاً .

فإذا أراد المرء أن يعتبر محمداً إنساناً قد أعطى له حد أدنى فقط من الروح النبوي ، أو إذا أراد أن يعتبر أن الشيطان قد تلبسه أو أنه إنسان هستيري أو مصاب بالصرع ، فإن الأمر الذي لا جدال فيه أنه كان لديه المزاج العقلي الخاص الذي يدفع أناساً معينين إلى إنعام الفكر وتعذيب أنفسهم بمسائل دينية إلى أن يجدوا حلاً لها . ولم يكن هناك في الماضي (بالنسبة لمحمد) أحد من رجال الله استطاع أن يجيب عن الشدة والمعاناة التي أقضت مضجع محمد بوحي يشتمل على الحقيقة الواضحة عن البعث ويوم الحساب . والأمر الأقل من ذلك بكثير أنه لم يكن هناك أحد من أمثال هؤلاء بين معاصريه . وقد أتى إليه الخلاص من أعلى ! وقد كان هو نفسه معيناً من قبل الله لإخراج قومه من الظلمات إلى النور!

وإذا كان سنوك هو رجرونيه قد أثبت بذلك أن فكرة يوم الحساب كانت تحتل مكان الصدارة في دعوة محمد فإنه بذلك يكون قد قام بنقض دعوى جريمه التي

تتمثل في القول بأن محمداً قد ظهر أولاً بوصفه من قبيل المصلحين الاشتراكيين .
وعلى الرغم من ذلك فإن سنوك هورجرونيه يخصص فصلاً أخيراً مستفيضاً لمناقشة هذا السؤال : هل كان محمد اشتراكياً ؟

وفي البداية يقدم هورجرونيه اعتراضين عامين (ضد دعوى جريمه) :

(١) كيف لم تتجه معارضة المكيين على الإطلاق - بناء على شهادة القرآن القاطعة - ضد الزكاة التي كانت في رأي جريمه في مقدمة دعوة محمد ، بل اتجهت المعارضة باستمرار وفي المقام الأول ضد عقيدة البعث ويوم الحساب؟

(٢) هل كان محمد - فضلاً عن ذلك - يدعو إلى عقيدة يوم الحساب فقط لكي يجبر المكيين البخلاء على دفع الزكاة - حسب رأي جريمه ؟(٩٠)

ألم يكن في وسع محمد أن يجد لذلك حينئذ وسيلة أفضل من تلك العقيدة التي لم يكن المكيون يؤمنون بها ، وهي عقيدة يقول عنها جريمه نفسه إنها كانت أكثر النقاط ضعفاً في الإسلام الأصلي!

وحقيقة الأمر هي أن فرض الزكاة قد ذكر مع أمور أخرى دون أن تضاف إليه أهمية خاصة !

وهكذا يتضح من هذه النظرة العامة بطلان رأي جريمه . ولكن هناك أسباباً خاصة تضاف إلى ذلك : فكلمة الزكاة التي ترجمها جريمه بالضريبة (Steuer) لم تكن تعني إطلاقاً معنى الضريبة في العصر الأول للإسلام قبل الهجرة ، بل كانت تعني ممارسة اختيارية لفضيلة «البر والإحسان» . وقد تم بعد الهجرة فرض «ضريبة» معينة ، ولكن محمداً لم يكن يستخدم هذه الإيرادات للتخفيف من عنت الفقراء ، بل كان ينفق منها وقت الحاجة على حملاته الحربية . وقد أصبحت هذه «الضريبة أولاً نظاماً دائماً في عهد أبي بكر وأضحت «عموداً» من أعمدة الإسلام ، وأسهمت إسهاماً كثيراً في انتشار القوة

الإسلامية(٩١) .

وتعد «فضيلة البر والإحسان» فضيلة شرقية عامة ، وقد امتدحها اليهود والمسيحيون بوصفها فضيلة أساسية . ولكن القرآن يشهد في بعض آياته بأن محمداً قد جعل من هذه الرؤية (العامة) رؤية خاصة به(٩٢) . وفضلاً عن ذلك فإنه إذا كان محمد قد دعا منذ البداية إلى الزكاة بمعنى «الضريبة» ، وإذا كان -كما يريد جريمه- قد جعل من هذه الضريبة منذ البداية فصاعداً العنصر الأساسي لدعوته ، فحينئذ يحق للمرء أن يعجب جداً لأن التراث المحمدي كله لا يعرف شيئاً من مثل هذا النظام (الضريبي) في بداية الإسلام ، وليس هذا فحسب ، بل إن مما يثير الدهشة أيضاً أن المحمديين قد قللوا عن قصد عمر هذه «الدعامة» من دعائم دينهم لأنهم بصفة عامة قد حددوا زمن فرض مثل هذه «الضريبة» أولاً بعد الهجرة .

وعلاوة على ذلك فإنه لا يوجد في الوحي المكي وصف لهذا الشكل من أشكال الضريبة ، ولا يوجد بيان من النبي عن الطرق المفروضة لجمع واستخدام هذه الضريبة ، وليس هناك أيضاً أقل القليل من الإشارة أو التلميح لهذا النظام (الضريبي) . وقد وضع التراث المحمدي توقيت نظام «الضرائب» الحكومي بوضوح في وقت متأخر (أي بعد الهجرة) .

وأخيراً كان يجب أن يكون مثل هذا الإجراء ، وهو الدعوة الاشتراكية لفرض ضريبة من الضرائب ، ناتجاً من الظروف الكلية لمدينة مكة بوصفه نتيجة حتمية . ولكن هذا أيضاً لم يكن هو الحال . صحيح أن التناقض بين الغنى والفقر كان قائماً ، ولكنه لم يكن (في مكة) أسوأ مما كان قائماً في أي مدينة أخرى .

ويضاف إلى ذلك أن محمداً كان يدعو في مكة باستمرار إلى الصبر والتحمل السلبي وأنه لم يتحول من الدفاع إلى الهجوم إلا بعد الهجرة إلى المدينة . وقد كان

هذا إذن في الوقت الذي اختفت فيه دعوته الاشتراكية - حسب رأي جريمه - وحلت محلها عقيدة دينية ميتافيزيقية .

وهكـذا يتضح أن الفرضية الجديدة عن محمد الاشتراكي - التي قال بها جريمه - لا تتفق بأي شكل من الأشكال مع الوقائع ولا يمكن البرهنة عليها بأي حجة تاريخية أو غيرها من حجج أخرى . ولكن فيما عدا ذلك فإن سيرة محمد لجريمه لا تختلف بأي حال عن المؤلفات السابقة ، غير أنه قد تخللتها في أماكن عديدة مزاعم جريئة ، الأمر الذي يعد آفة من الآفات لمؤلف من المؤلفات الشعبية .

ولو كان قد قدم خلاصة دقيقة للعمل الذي بذل حتى الآن (في مجال كتابة السيرة) لكان يمكن أن يكون ذلك أكثر ملاءمة بالنسبة لهذه الغاية .

أما القسم الثاني من سيرة محمد لجريمه ، والذي ظهر بعد القسم الأول بثلاث سنوات ، فإنه يشتمل على «مقدمة في القرآن» تناول فيها باختصار تاريخ نشأة القرآن وشكل السور القرآنية وتتابعها الزمني . ولكن المضمون الأساسي لهذا المجلد يشكل «نسق علم العقيدة القرآني» والذي سنعود للحديث عنه بالتفصيل عند حديثنا عن «تعاليم محمد» (ص٢٠٠)(٩٣) .

وهناك قصور في هذا الكتاب يتمثل في أن جريمه لم ينتفع من الأحاديث الصحيحـة التي تقـدم تصوراً أكثر حيوية وأكثر تنوعاً لروح الإسلام مما يقدمه القرآن الذي ينحو في معظمه نحو التجريد(٩٤) .

وإذا كانت فكرة الاشتراكية تحتل مكان الصدارة في هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين عن سيرة محمد ، وهي فكرة قام سنوك هورجرونيه بتفنيدها ببراعة - فإن حديث جريمه عن محمد في كتابه «تاريخ العالم في صور مميزة» يأتي بفرضية جديدة يحاول إثباتها وهي الأصل العربي الجنوبي لأفكار محمد الدينية . ومن أجل

هذا الغرض خصص النصف الأول كله من دراسته لبحث التاريخ الأقدم لبلاد العـرب . وهنا نتعرف على التاريخ السياسي والحضاري لبلاد العرب القديمة الشمالية والجنوبية .

والآن فإن الاقتباس من جنوب العرب لا يعد فقط أمراً محتملاً ، بل هو أمر راجح إلى أقصى حد . أجل ، فهناك في عبادة الإسلام على كل حال أمور كثيرة مما كان في بلاد العرب القديمة بقدر أكثر مما كان يفترضه المرء في العادة .

ولكن الأمر الذي يعد بعيد الاحتمال جداً هو أن تكون التأثيرات العربية الجنـوبية وحدها هي كل شيء . فالأحرى أنه لا يجوز التغاضي عن التأثيرات اليهودية والمسيحية والفارسية . ويضاف إلى ذلك أن مكة كانت مدينة لها صبغة عالمية لدرجة كبيرة ، ومن ناحية أخرى كان ظهور محمد أمراً غير عادي إلى حد كبير(٩٥) .

ومن الطبيعي أن تتوقف التأثيرات العربية الجنوبية بالهجرة (إلى المدينة) ، ومن هذه اللحظة فصاعداً فقد جريمه أيضاً كل اهتمام بالتطور الديني لمحمد . فكل شيء بعد ذلك يعد بالنسبة لجريمه مناورة سياسية لدجال امتهن الدين من أجل غايات دنيوية . وقد كان هذا الرأي عن محمد رأياً عاماً شائعاً في السابق ولا يزال الآن أيضاً قوى الانتشار . ولكن محمداً لم يكن يجعل هناك أبداً فارقاً بين الأمور الدينية والأمور السياسية . فهو يريد الإنسان كله . والارتباط السياسي هو النتيجة البديهية تماماً للتحول إلى الإسلام ، والرعاية السياسية لأتباعه تعد جانباً أساسياً لنبوته . وأيضاً فإن ضم الكعبة إلى دائرة نظرته أو تأمله لا يعد مناورة سياسية ، بل يعد تطوراً دينياً داخلياً .

وفي مقال خاص نشر في «مجلة الشرق الشهرية النمساوية» عرض جريمه مرة أخرى «أصول دين محمد» باختصار . فبجانب اليهودية والمسيحية كان هناك

دين قائم في الجنوب العربي هو «دين الرحمانان» بناء على شهادات النقوش السبئية . ويحاول جريمه أن يصف هذا الدين من واقع النقوش وصفاً دقيقاً وأن يبين صلته الوثيقة بدين محمد . ونتيجة لبحوثه يقرر جريمه أن الإسلام «لم يكن شيئاً ولد في رأس محمد ثمرة لتأمل أصيل دون أي تأثير من العالم المحيط به ، بل كان في بداياته الأولى كما كان في استمرار تطوره - طالما كان هذا التطور يحدث على أرض مكة - متشابكاً تشابكاً وثيقاً مع (دين الرحمانان) الجنوبي العربي» .

وبصرف النظر عما إذا كان «دين الرحمانان» هذا لم يثبت إطلاقاً أنه كان ديناً خاصاً فإنه يبدو أن جريمه هنا أيضاً لم يقدر قيمة التأثيرات اليهودية والمسيحية إلا في أقل القليل . والأمر كله لا يعدو أن يكون فرضية طريفة !(٩٦)

١٣ - بـول Buhl :

في حين يوجه جريمه أكبر الاهتمام لتصوير البيئة المحيطة بمحمد فإن بول(٩٧) - الذي لم يترجم -للأسف- كتابه الممتاز عن سيرة محمد إلى الألمانية - يوجه اهتمامه إلى موضوع التطور الديني لمحمد . فقد جمع بعناية فائقة - وأنا أقرر هنا بكلمات ك. هـ. بيكر نظراً لأن الكتاب الأصلي لم يكن في متناول يدي - جمع بين المراجع العربية والأوربية ، وناقش مشكلة بعد مشكلة بحرص وبغزارة في الأسانيد جديرة بالتقدير . وبطبيعة الحال يقتفي في الغالب أثر الثقات المعدودين ، ولكن نادراً ما يكون ذلك دون نقد وتمحيص .

ومما هو جدير بالاعتبار بصفة خاصة تحفظه إزاء فرضيات معينة من الفرضيات الحديثة الطريفة ، مثل تلك الفرضيات التي عرض علينا بعضها فنكلر Winckler (٩٨) بصفة خاصة في ثوب مغر . وقد خصص كذلك قسماً كبيراً من الكتاب للبيئة التي انحدر منها محمد ، أي للعالم العربي الوثني . وفي حياة

محمد ذاتها أجرى بول تفرقة محمودة بين الأسطورة والتاريخ . وفي العرض الرائع المختصر لقضية المصادر الذي أورده بول في نهاية الكتاب يجد المرء تعليلاً للأسس التي راعاها بول في كتابه .

أما بالنسبة لموضوع التطور الديني ذاته فقد انتفع بول كثيراً بمقالة سنوك هورجرونيه « الإسلام De Islam » . وفي هذا الصدد نجد بول منصفاً تماماً لشخصية النبي . وهذا أمر يختلف تماماً عن (موقف) جريمه الذي ظل النبي غريباً عنه داخلياً .

وفي مقال لمجلة عالم الإسلام «The Moslem World» يقدم بول - على أساس كتابه الكبير عن سيرة محمد - عرضاً مختصراً عن «أخلاق محمد بوصفه نبياً» يمتاز بدرجة كبيرة من الموضوعية .

وفي الكتاب التذكاري للاحتفاء بنولدكه يقدم لنا بول أخيراً «بعض إسهامات لنقد تاريخ محمد» وذلك في قسمين : ١ - مقدمات معركة بدر . ٢ - الهجرة إلى الحبشة .

١٤ - مرجليوث(٩٩) Margoliouth :

أما مرجليوث فإنه في كتابه «محمد ونهضة الإسلام» قد انتفع بسلسلة من المصادر الجديدة التي لم تكن قد استخدمت حتى ذلك الحين . وفي ذلك تكمن قوته كما يكمن ضعفه أيضاً -كما يقول بيكر- . فالصورة نجدها حية جداً في كثير من الحالات ، ولكن المؤلف يأخذ في حالات كثيرة جداً الكساء المعهود للمذاهب المتأخرة على أنه تاريخ . كما أن المشكلة الدينية ، مثل التأسيس النفسي لعودة محمد إلى طقوس العبادة المتعلقة بالكعبة ونزعته الإبراهيمية ، تتراجع لدى مرجليوث بشكل ملفت للنظر ، في حين أنه يتتبع بشغف ظاهرة الوحي لدى

محمد ويقارنها بأقوال المذهب الروحي الحديث وبالمذهب المورموني «Mor-monism» (١٠٠) .

ويرى مرجليوث في محمد دجالاً ماكراً معدوم الضمير وسياسياً يخدع الآخرين بشعوذاته . وبذلك يسد مرجليوث على نفسه الطريق لفهم أخلاق محمد وتطوره . فالكتاب إذن له مزايا كبيرة ، ولكن أخطاءه كبيرة أيضاً . والشيء الممتاز يتمثل في تلك الصور العديدة (التي اشتمل عليها الكتاب)(١٠١) .

وقد كتب مرجيليوث أيضاً مقالتين عن «محمد» أحداهما في دائرة المعارف البريطانية والأخرى في دائرة معارف الدين والأخلاق . وتشتمل كلتا المقالتين أيضاً على بيانات قيمة بالمراجع .

١٥ - جولد تسيهر Goldziher ومرحلة جديدة :

بدأت هناك مرحلة جديدة في مجال البحث في حياة محمد عن طريق بحوث جولد تسيهر حول «تطور الحديث» . وقد أثبت جولد تسيهر عن طريق عدد وفير من الأمثلة القاطعة أن «الحديث» ليس تاريخاً وإنما هو رواسب تعكس ميول شتى التيارات والتيارات المضادة في حياة الإسلام(١٠٢) .

وأول من طبق هذه المعرفة بصورة حاسمة على حياة محمد كان ليوني كيتاني(١٠٣) Caetani . صحيح أن إنتاجه الضخم (انظر ص ٣٦(١٠٤) وما بعدها) لا يتضمن سيرة لحياة محمد بالمعنى الدقيق ، بل يشتمل فقط على عمل تمهيدي لذلك عن طريق جمعه الواسع للمادة (العلمية) . وعلى أساس من هذا العمل التمهيدي تناول كيتاني العديد من الجزئيات المتعلقة بسيرة النبي بنقد أصيل وحاد ، وإن كان في بعض الأحيان أيضاً يذهب في النقد إلى حد بعيد نسبياً . (قارن في ذلك بوجه خاص النقد المفصل لتيودور نولدكه للمجلدين

الأول والثاني في «مجلة فيينا لمعارف الشرق» جزء ٢١ ص ٢٩٧-٣١٢) .

ولكن كيتاني كان - حسب قول نولدكه - منصفاً تماماً لنفسية محمد الفريدة . ويبين لنا كيتاني بصورة ممتازة - طالما كان ذلك ممكناً - كيف تحول الداعية المتحمس لله تحولاً سريعاً ، بمجرد أن استقرت أقدامه في المدينة ، إلى سيد دنيوي وسياسي عبقري دون أن يحدث في باطنه تصدع واع وحقيقي . والأمر الهام أن محمداً أيضاً في شتى تنظيماته وأعماله التي تجرح شعورنا الأخلاقي جرحاً بالغاً لم يفقد الوعي بأنه أداة إلهه، هذا الإله الذي هو نفسه لديه نقاط ضعف إنساني إلى حد ما(١٠٥) .

١٦ - لا مانس Lammens :

يتابع لا مانس(١٠٦) كلا من جولد تسيهر وكيتاني . ونحن ندين بالفضل للامانس لتلك السلسلة الكبيرة من البحوث عن تاريخ محمد التي تمتاز جميعها بحدة ذكاء رائعة واطلاع عظيم . ولكنها في تشككها إزاء المصادر غالباً ما تذهب في ذلك إلى حد بعيد أكثر من اللازم .

وقد ناقش كل من نولدكه وبيكر(١٠٧) في مقالات مطولة نتائج بحوث لامانس . وكان نولدكه - في نقده المشار إليه لكتاب كيتاني - قد عارض التشكك المجاوز للحد من جانب لامانس . وتناول نولدكه في مقالة خاصة بعنوان «الحديث وصلته بحياة محمد» (مجلة الإسلام ٥، ١٩١٤، ص ١٦٠-١٧٠) - تناول أقوال لامانس بالتفصيل بنقد بالغ العمق . ويذهب نولدكه أيضاً إلى القول بأن التطور الداخلي لمحمد ، والذي أدى إلى النبوة ، يظل بالنسبة لنا من الأمور الغامضة حقاً ، كما أننا لا نعرف إلا القليل عن فترة نبوة محمد المكية . ولكن الأحاديث تقدم لنا أيضاً بعض الأمور اليقينية عن هذه الفترة . وبانتقال

محمد إلى يثرب نطأ أرضاً تاريخية واضحة :

« وعلى الجملة فإنني إذا أردت أن ألخص وجهة نظري فإنني يجب أن أعبر تعبيراً حاسماً ضد الرأي القائل بأن السيرة (أي الوصف العربي لحياة محمد) لم تكن إلا مجرد ذيل أو ملحق لتفسير القرآن . إنها كثيراً ما ترتبط بذلك برباط وثيق ، ولكنها مع ذلك مستقلة في جملتها» .

وفي المجلد نفسه من مجلة «الإسلام» (ص ٢٠٥-٢١٢) يقدم نولدكه حديثاً مفصلاً ونقداً لكتاب لامانس الرئيسي «مهد الإسلام» الذي سنتحدث عنه بعد قليل بشيء من التفصيل .

وفي المجلد الخامس عشر من مجلة «أرشيف لعلم الأديان» قدم بيكر في تقريره عن المراجع حول الإسلام بياناً مختصراً بمضمون البحوث المختلفة التي قام بها لامانس . وفي مقال خاص بعنوان «أمور مبدئية لدراسة لامانس للسيرة» في المجلد الرابع من مجلة «الإسلام» ناقش بيكر مرة أخرى مناقشة مبدئية آراء لامانس حول مصادر تاريخ حياة محمد .

وقد أبدى شفاللي(١٠٨) Schwally في مواضع مختلفة من تنقيحه لكتاب نولدكه «تاريخ القرآن» (المجلد الأول ص ١٠١ وما بعدها ، والمجلد الثاني ص ٢٠ وما بعدها ، ص ٨٤ ، وبصفة خاصة ص ١٩٦-١٩٨ ، ٢١٤ وما بعدها) - أبدى رأيه في أهم مواقف لامانس .

وعلى أساس من هذه الانتقادات نعرض للحديث باختصار عن أعمال لامانس الرئيسية .

فدراسة لامانس التي عنوانها «مكة بوصفها مركزاً تجارياً حوالي عام ٦٠٠ ميلادية» يقف فيها بصورة رائعة وعناية دقيقة على ظروف مكة الاقتصادية والسياسية عند ظهور النبي .

أما مقالته «القرآن والحديث . كيف تمت كتابة سيرة محمد» فإنها تقدم أفضل نظرة توضح كيف يتصور لامانس نشأة شكل السيرة . وفي هذه المقالة يرى لامانس أن سيرة حياة محمد لا تقوم - كما يظن المرء غالباً - على مصدرين مستقلين هما تفسير القرآن والحديث النبوي ، بل إن المادة الحديثية كلها المتعلقة بحياة محمد وظهوره ليست شيئاً آخر غير مادة تفسيرية مخترعة بشكل حر للإشارات القرآنية . فالمصدر الوحيد إذن لحياة محمد - وليس لتعاليمه - هو القرآن . وهذه الدعوى يعرضها لامانس بكثير جداً من الذكاء الحاد عن طريق الأمثلة الكثيرة .

ويرتبط بهذه المقالة ارتباطاً وثيقاً عمل آخر يتمثل في بحثه عن «عصر محمد والترتيب الزمني للسيرة» . وهنا يبين لامانس اضطراب وضعف بيانات الترتيب الزمني التي تبدو كأنها بيانات دقيقة والتي تشتمل عليها الأحاديث (النبوية) الإسلامية عن حياة محمد . ويجب أن ينظر إلى هذه البيانات على أنها محاولة أجريت بوسائل غير كافية تماماً من جانب علماء الخلف المقلدين الذين كانوا مهتمين بمسائل الترتيب الزمني وقاموا بإدماج الأحاديث الشفوية - التي تفتقد أصلاً التحديد الزمني الدقيق - في قالب تاريخي . ولا يريد لامانس أن ينكر احتمال أن تكون هناك على الأقل بعض بيانات جديرة بالتصديق في هذا الترتيب الزمني الذي هو فيما عدا ذلك مصنوع تماماً(١٠٩) .

والكشف عنها (أي عن البيانات الصحيحة) هو مهمة بحث نقدي خاص . ويريد لامانس أن يخفض مدة حياة محمد وعمره عند الأحداث الحاسمة عقداً من الزمان على الأقل - على عكس ما تقول به الأحاديث(١١٠) .

ويهتم لامانس أيضاً بالسؤال القديم : «هل كان محمد مخلصاً؟» . ويعتقد لامانس - بناء على تحليل نفسي دقيق - أنه يتحتم الإجابة بالنفي على هذا

السؤال(١١١) .

ويعبر لامانس في بحثه «حكومة الثلاثة : أبي بكر وعمر وأبي عبيدة» عن الافتراض بأن هؤلاء الرجال الثلاثة قد جمعوا شملهم قبل وفاة النبي ثم بعد وفاته على وجه اليقين لكي يمنعوا سقوط الدولة ، وأنهم إذن لم يكونوا متحمسين دينيين أيضاً ، بل كانوا ساسة حصفاء(١١٢) .

وقد تناول بيكر بالتفصيل دراسة مطولة أخرى للامانس حول موضوع «فاطمة وبنات محمد ، ملاحظات نقدية لدراسة السيرة» (مجلة الإسلام ، ٤، ١٩١٣ ص٢٦٣-٢٦٩) .

ويعترف بيكر عن طيب خاطر بالخدمات الكبرى للامانس في مجال البحث النقدي لحياة محمد ويوافقه في الحكم على التصوير الإسلامي لسيرة النبي ؛ فهذه السيرة ليست مصدراً تاريخياً مستقلاً ، بل هي مأخوذة في وقت متأخر من تفسير القرآن ومن الأحاديث المختلفة التي أتت نتيجة للميول العقدية والفقهية ، ونسقت تنسيقاً بيوجرافياً ، فالسيرة إذن إنتاج متأخر .

ولكن بيكر يؤكد - معدلاً من حكم لامانس - أن هناك في السيرة بجانب الكم الكبير من القصص المغرضة أخباراً عديدة لم يثبت أنها مغرضة ، وتسمح يقيناً بإعادة بناء صورة تاريخية . ويتهم بيكر لامانس أنه بصفة خاصة لم يكن في نقده منطقياً مع نفسه بقدر كاف ، بل كان يسلم بالصورة السيئة للمأثورات المغرضة الموجهة ضد علي دون فحص ويأخذها على أنها صورة تاريخية لدرجة تجعل تصويره يسقط في عشوائية تامة .

وبعد كل هذه الدراسات التمهيدية قام لامانس في كتابه الرئيسي «مهد الإسلام» ببيان الصورة التاريخية لنشأة الإسلام من المصادر وبتفصيل القول في مجال هذه الصورة كله . واقتناعاً منه بأهمية معرفة البيئة يخصص لامانس

المجلدين الأولين - اللذين لم يظهر منها حتى الآن إلا المجلد الأول فقط - لوصف أماكن مولد الإسلام ، ووصف بلاد العرب الغربية وسكانها . وعلى أساس من الاطلاع الواسع الذي يحسد عليه في كل أنواع المراجع العربية القديمة ، التي سجل معلوماتها في آلاف الهوامش ، استطاع لامانس أن يصف الأرض والناس في الحجاز في عصر ظهور النبي وصفاً حياً إلى أقصى حد .

ويضع لامانس بين القسمين الرئيسيين للكتاب - حيث يصف أولهما الظروف الاقتصادية والطبيعية للبلاد ، ويصف ثانيهما أوضاع حياة القبائل البدوية (أما السكان القاطنون المستقرون فإنه يصفهم في المجلد الثاني) - يضع مناقشة جديرة جداً بالتقدير للدعوى الجديدة التي تذهب إلى القول بأن الطقس قد تغير في بلاد العرب تغيراً أساسياً في زمن تاريخي . فالتحول المستمر للبلاد إلى صحراء غير مأهولة بالسكان كان الدافع الحقيقي للفيضانات البشرية الكبيرة من جانب سكان «مجلس الشعوب» العربية إلى بلاد الحضارة المجاورة ، وبصفة خاصة أيضاً كان الدافع الحقيقي للفتوحات الإسلامية . (قارن ليوني كيتاني ص ٣٧)(١١٣) .

ويعد لامانس خصماً لدوداً لهذه النظرية ، ويواجهها بصفة خاصة بحقيقة مؤداها أن تاريخ اقتصاد الحجاز يدل على أنه كان هناك مستوى عال لحضارة البلاد في القرون السابقة مباشرة لظهور محمد ، ويدل على كل شيء آخر غير الإقفار العام والفقر الذي يمكن أن يدفع إلى توسع عنيف .

ويمكن القول على وجه الإجمال بأن لامانس بمؤلفاته كلها قد جمع مادة (علمية) عظيمة لتاريخ حياة محمد ، تقدم لكل باحث - مع استخدام النقد الضروري - إشارات ثرية .

أما أحدث تصوير انجليزي لحياة محمد من جانب كل من كانون سل

Canon Sell ودرايكوت G.M. Draycott فلم يكن في متناول يدي . واستناداً إلى ما يقوله ت . ف . أرنولد(١١٤) Arnold فإن درايكوت لم يعتمد على المصادر ، ولم يعـرف لادين النبي نفسه ولا المؤلفات الأساسية عن الإسلام . (قارن : مجلة تاريخ الأديان ٨٠ ، ١٩١٩ ص ٢٨٣) .

(هـ) كتابات شعبية عن حياة محمد

١ - ريكندورف Reckendorf :

من بين المؤلفات الشعبية العديدة عن حياة محمد نذكر فقط كتاب «محمد وأصحابه» من تأليف ريكندورف(١١٥) ، وكتاب «حضارة العرب من تأليف يوسف هيل . وقد ظهر كلاهما في مجموعة «العلم والثقافة» .

وريكندورف وإن كان لم يقدم ترجمة حقيقية لسيرة محمد إلا أنه قد نجح بصورة رائعة في توضيح الأسس الاجتماعية والحضارية والاقتصادية والسياسية والذاتية للإسلام في بداياته بشكل مترابط .

ويتناول ريكندورف في فصول أربعة (الموضوعات التالية) :

١ - قوة تأثير أعمال محمد ونشاطاته .

٢ - حروب محمد .

٣ - أصحاب محمد .

٤ - رئيس الدولة والرعية .

وفي فصـل خامس يقـدم لنـا نظرة على تطور الأحداث بعد وفاة محمد . ويعقب ذلك ملحق يشتمل على ذكر أهم المراجع . ويستند عرض الموضوعات

على القرآن بصفة خاصة ، ولكنه يعطي أحياناً – رغم كل النقد – ثقة أكثر من اللازم للحديث . ومن بين الأخطاء التي يبرزها سنوك هورجرونيه بصفة خاصة في نقده المفصل المنشور في جريدة الأدب الألماني ١٩٠٧ عمود ١٣٠٩-١٣١١) بعض الأخطاء التي تتعلق بقصور المعرفة للقوانين العربية للأسرة .

٢ – هـيـل Hell :

ويقدم هيل أيضاً في الفصل الثاني من كتابه «حضارة العرب» صورة حية لحياة النبي وتعاليمه(١١٦) .

٣ – كامبفماير Kampffmeyer :

في أربـع مقالات – تدل على خبرة علمية – كتبها كامبفماير(١١٧) لمجلة «العالم المسيحي» يصف القرآن باعتباره مصدر حياة محمد ، ويصف أحوال بلاد العرب قبل الإسلام ، ويعرض تعاليم محمد (عقيدة البعث والحساب ووحدة الله والقضاء والقدر ومفهوم الوحي وتعاليم الأخلاق القرآنية) . ويختتم مقالاته بنظرة على تطور الإسلام بعد ذلك .

٤ – ريـم Rehm وفورتس Würz :

أما تصوير ريم لمحمد ولعالم الإسلام في سلسلة مكتبة ريكلام العلمية فقد جاء شعبياً أكثر من اللازم ، ولم يكن منصفاً للحضارة العقلية للإسلام(١١٨) .

وفي «مجلة التبشير الإنجيلي» (مجلد ٦٦ ، ١٩٢٢ ص ٢٧٢ وما بعدها) ألقى ف. فورتس نظرة سريعة على «محمد وأعماله» .

٥ - مـايــر Meyer :

وفي النهاية نشير أخيراً إلى تلك المحاولة الهامة التي قام بها إدوارد ماير(١١٩) في استخلاص أوجه الشبه بين ظهور محمد ومؤسس طائفة المورمون جوزيف سميث(١٢٠) .

ويربط ماير أقدم سورتين - طبقاً لما ورد بشأنهما في الأحاديث وهما السورة رقم ٧٤ والسورة رقم ٩٦ - يربطهما بالرؤى الروحية التي شهد بها النبي نفسه ، (مرة) وقت شعوره باصطفائه على جبل حراء ، (ومرة أخرى) عند «شجرة سدرة المنتهى» . ويفسر ماير شجرة سدرة المنتهى - متفقاً في ذلك مع اشبرنجر بمكان معين لدى مكة ضاعت معالمه بعد ذلك(١٢١) . ويؤيد ما ير الفهم القائل بأن كلمـة «اقـرأ» في بداية السـورة رقم ٩٦ يجب أن تفهم بمعناها الحقيقي وأنها تنسحب على الوحي .

وبصرف النـظر عن أن ماير قد ترجم الكلمة العربية «قرأ» ترجمة خاطئة بمعنى Lesen (أي بالمعنى المعهود الذي تدل عليه الكلمة وهو القراءة) ، في حين أن المعنى المقصـود هو يتلو(١٢٢) «rezitieren» - بصرف النـظر عن ذلك فإن مقارنته مفيدة ومثيرة للاهتمام ، وإن كان أيضاً يجاوز الحد في بعض الأحيان . (قـارن النقد المفصل الذي كتبه يوهانز بيدرسين Pedersen في مجلة «الإسلام» ٥ ، ١٩١٤ ص ١١٠-١١٥) .

يتبـع

الحواشي

(١) انظر العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر من ص ٧٣ إلى ١٢١ .

(٢) يراجع في ذلك كتاب جوستاف بفانمولر G. Pfannmülle «موجز في أدب علوم الإسلام Handbuch der Islamliteratur » - الذي نشر أول مرة في برلين عام ١٩٢٣ وأعيد نشره عام ١٩٧٤ - من ص ١٦٨ إلى ص ١٩٦ .

(٣) ادوارد سعيد : الاستشراق ص ٣٩ ترجمة كمال أبو ديب - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨١ .

(٤) صدر هذا الكتاب في روما عام ١٩٦٩ وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٧١ بعنوان :

Guidelines for a Dialogue between Muslims and Christians

ويشتمل هذا الكتاب على كثير من الجوانب الإيجابية .

(٥) انظر على سبيل المثال الكتاب الذي ألفه John Laffin بعنوان : خطر الإسلام Danger of Islam (١٩٧٩) وتمت ترجمته أيضاً إلى الألمانية عام ١٩٨٠ . وانظر أيضاً ما تضمنه في هذا الصدد الكتاب الذي يحمل عنوان «1985» من تأليف Anthony Burgess والذي صدر في لندن عام ١٩٧٨ وأعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات .

(٦) صدر كتاب بوديه بالفرنسية في باريس عام ١٦٢٥ و ١٦٣٢ ثم بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان في عام ١٧٤١ تحت العنوان التالي :

Histoire de la religion des Turcs avec la naissance, la vie et la mort de leur faux prophète Mahomet.

(٧) لا شك أن مثل هذه الكتابات التي تعلن عن مقصدها صراحة مثل كتاب بودييه تعد أقل خطراً من تلك المؤلفات الأخرى التي لا تكشف صراحة عن مقصـدها ، بل تحاول بشتى أساليب التمويه والتزويق العلمي أن تقنع القاريء بما تريد ، ولسنا هنا في حاجة إلى الكشف عن أباطيل بودييه . فالقاريء العادي لا يخفى عليه زيف مزاعمه . فعمله أبعد ما يكون عن الاقـتراب من البحـوث العلمية النـزيهة التي تسعى لمعرفة الحقيقة بتجرد وموضوعية . وقد اعترف بفانموللر بأن عمل بودييه لم يكن على وجه اليقين عملاً محايداً ، فهو عمل يدخل في باب الجدل الكنسي السقيم .

(٨) كيف يقال إن بودييه قد روى حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة وهو في الوقت نفسه قد أفسح في كتابه مكاناً لأكثر المزاعم وقاحة وأكثر الأساطير مدعـاة للسخـرية ؟ هذان أمـران لا يجتمعان ، فإما دقة وموضوعية وإما مزاعم وقحة وأساطير مضحكة . أما هذا الخلط الغريب فإنه يعد استهانة بعقلية القاريء .

(٩) إدوارد بوكوك (١٦٠٤ - ١٦٩١) درس اللاهوت في اكسفورد وتعلم العربية في حلب ، وأصبـح أستـاذاً للعربية والعبرية في إكسفورد عام ١٦٣٦ . وكتـابـه الـذي يتحـدث عنـه بفـانموللر هنا هو «لمع من تاريخ العرب» (١٦٥٠ : Specimen Historiae Arabum ، وقـد اعتمـد فيه على كتاب بالعربية لابن العبري . وفي عام ١٦٦٣ أخرج نشرة كاملة بالعربية لكتاب «مختصر تاريخ الدول» لابن العبري . (غريغوريوس أبو الفرج ١٢٢٦ - ١٢٨٩) الذي كان رئيس اليعاقبة فيما كان يعرف قديماً بالمملكة الفارسية . وقد كتب ابن العبري هذا الكتاب بالعربية ، وهو يشكل الجزء الأول من كتاب له في التاريخ العام بالسريانية في ثلاث مجلدات . (راجع : دائرة

المعارف الإسلامية - مادة : ابن العبري . وراجع أيضاً :

J. Fueck : Die Arabischen Studien in Europa, P. 88f., Leipzig 1955.

(١٠) يحيل بفـانموللر هنا إلى ص ١٣٢ حيث يشير هناك إلى أن أول المصادر العربية التي رجع إليها الكتاب الغربيون في الكتابة عن محمد ﷺ كان كتاب ابن العبري المشار إليه وكتاب أبي الفدا الذي نشره جانييه (سيأتي الحديث عنه في هذا البحث أيضاً) ، وأشار بفانموللر إلى أن المصادر العربية الأقدم عهداً من هذين الكتابين لم تكن معروفة حتى ذلك الحين للعلماء الأوربيين .

(١١) هو تنجر : مستشرق سويسري ، كان أستاذاً للغات السامية في كل من زيوريخ وهايدلبرج . وقد صدر كتابه المشار إليه في زيوريخ عام ١٦٥١ وأعيد نشره عام ١٦٦٠ . ومن أعماله أيضاً : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

(١٢) المقصود هنا تفسير الديانة المسيحية والدفاع عنها .

(١٣) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ - ١٦٢١) كاردينال يسوعي ، كان في طليعة المهاجمين للإصلاح الديني الذي تم على يد مارتن لوثر وأتباعه .

(١٤) نشرت الـترجمـة الألمـانية في هايدلـبرج بألمانيا عام ١٦٦٨ تحت عنوان : «العبادات المتباينة في العالم كله» .

(١٥) لقد كان ماراتشي أحد رجال اللاهوت الإيطاليين . أمضى حياته كلها في إعداد دراسات هدفها البرهنة - كما يزعم - على بطلان الإسلام وحقيقة الديانة المسيحية . وقد صدر كتابه في «تفنيد القرآن» عام ١٦٩١ وقدم فيه أيضـاً لمحـة عن حياة محمد ، ثم نشر النص العربي الكامل للقرآن عام ١٦٩٨ مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش كثيرة ومحاولة فاشلة لنقض القرآن

فقرة فقرة . وينطلق ماراتشي في دراساته - مثلما يفعل غيره من اللاهوتيين ومعظم المستشرقين - من فرضية يضعونها كأنها حجة مسلمة ويبنون عليها كل مزاعمهم . وتتمثل هذه الفرضية في أن محمداً ليس نبياً حقيقياً وأنه هو الذي قام بتأليف القرآن . وقد سبق أن فعل الشيء نفسه مشركو مكة . وقد وصف «بفانموللر» نفسه موقف ماراتشي (ص١١٦) بأنه «نفور داخلي إزاء محمد وتعاليمه» فكيف ينتظر منه - وقلبه مليء هكذا بالحقد على الإسلام - أن يكون منصفاً للإسلام ونبيه ؟ وأين ذلك من تعاليم القرآن - التي لابد أنه قد اطلع عليها - والتي تتمثل في الإنصاف المطلق الذي يعلو فوق كل اعتبار : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) . - المائدة آية رقم ٨ .

(١٦) همفري بريدو (١٦٤٨ - ١٧٢٤) مستشرق انجليزي ، له دراسات عن ابن ميمون وعن العهدين القديم والجديد وصلتهما بتاريخ اليهود . وكتابه عن «حياة محمد» صدر في لندن عام ١٦٩٧ وصدر بالفرنسية في استوكهولم عام ١٦٩٨ . ويصف نجيب العقيقي هذا الكتاب بأنه «ترجمة تافهة لا غناء فيها» . ويصف بفانموللر (ص١١٦) موقف بريدو من محمد ﷺ بنفس الوصف الذي وصف به موقف ماراتشي «النفور الداخلي إزاء محمد وتعاليمه» . وفي موضع آخر يصف موقفهما بأنه «حماس حقود» (ص١١٧) . ومن هنا ينطبق على (بريدو) ما ورد في الهامش السابق .

(١٧) انظر ما ذكرناه عن بولانفلييه في العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ص ٨٣ هامش رقم ١ .

(١٨) أبو الفداء : هو إسماعيل بن علي الأيوبي ، ولد عام ٦٧٢هـ في دمشق ، تولى إمارة حماه وكان له نشاط علمي ملحوظ . وأهم مؤلفاته كتابه «مختصر

تاريخ البشر» الذي اهتم به جانبيه وغيره من المستشرقين . وفي هذا الكتاب قسم عن سيرة الرسول ﷺ . وله أيضاً كتاب «تقويم البلدان» في الجغرافيا . وقد وصف جورج سارتون أبا الفداء بأنه كان «أعظم جغرافي في عصره» . وفي ص١٢٨ التي يحيل إليها بفانموللر يذكر عدداً من المؤلفات الأوربية التي اهتمت بكتاب أبي الفداء في التاريخ .

(١٩) عندما نشر بولا نفلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد (ص) بوصفه رسول العناية الإلهية . وقد اشترك جانبيه في الحملة ضد بولا نفلييه كما هو واضح .

(٢٠) ربما يعطي ما ورد هنا عن جانبيه انطباعاً بأنه كان منصفاً حقاً لمحمد ﷺ . ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً . فقد اعترف بفانموللر في موضع آخر (ص١١٧) بأن جانبيه قد وصف محمداً في مقدمة كتابه بأنه أكثر الناس شراً وبأنه عدو لدود لله ، ثم أضاف بفانموللر إلى ذلك قوله : من هذا يتبين لنا ماذا يفهم المرء من «حياده» . راجع تعليقنا على موقف جانبيه في العدد الأول ص٨٤ هامش١ .

(٢١) يحيل بفانموللر هنا على ص٢١٦ حيث تحدث هناك عن ترجمة سيل للقرآن من حيث كونها كانت وسطاً بين الترجمة الحرفية والترجمة الحرة ، ويشير إلى ما فيها من قصور ثم يتحدث عن محتويات «المقدمة التمهيدية» التي كان لها صدى بعيد .

(٢٢) يزعم المستشرقون واللاهوتيون أن محمداً ﷺ لم يعرف التعاليم «الصحيحة» للمسيحية وبني معارضته للتعاليم المسيحية على ما عرفه من صورة زائفة كانت شائعة حينذاك . ويعبر مستشرق معاصر هو (رودي بارت) عن ذلك بقوله : لقد كانت معلومات الناس عن المسيحية في مكة

في العصر الـذي عاش فيه محمـد معلومـات محدودة ونـاقصة ، ولم يكن المسيحيون العرب يسلكون النهج الصحيح في معتقداتهم ، وكانت تروج هناك آرءا بدعية منحرفة . ولولا ذلك - كما يزعم بارت - لما كان محمد على علم بأمثـال تلك الأراء التي تنكـر صلب المسيح وتـذهب إلى أن نظرية التثليث لا تعني الآب والابن وروح القدس ، وإنما تعني الله وعيسى ومريم الخ (راجع كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص٦٧ وما بعدها) . وهكذا ينكر المستشرقون أن يكون محمد ﷺ قد تلقى معلوماته عن المسيحية من أعلى عن طريق وحي سماوي أراد الله به أن يصحح العقائد التي أفسدتها عقول البشر على مر العصور .

(٢٣) ظهر كتاب ياكوب إيرهارت في مدينة أولم بألمانيا عام ١٧٣١ باللغة اللاتينية بعنوان : «حول أخطاء الكتاب المشهورين وغير المشهورين في عرض تاريخ محمد وأسباب ذلك» .

(٢٤) لم يكن فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) - وهو أديب فرنسا الشهير وقطب عصر التنـوير الفـرنسي - لم يكن يعني محمـداً ﷺ في حقيقـة الأمـر بكل هذه الأوصاف ، كما يشير إلى ذلك بفانموللر عقب ذلك مباشرة ، بل كان يعني المؤسسة الكاثوليكية بكل ما تمثله . وأقل ما يمكن أن يصف به المرء موقف فولتير هنا هو أنه نفاق كريه وتضليل متعمد وعمل لا أخلاقي . وقد عدل فولتـير من موقفـه بعـد ذلـك ونعت محمـداً ﷺ بكـل أوصاف التمجيد والإكبار . ومن حسن الحظ أن هذا الموقف الأخير هو الذي ذاع وانتشر في الأوساط الثقافية في فرنسا آنذاك كما يشير إلى ذلك بفانموللر أيضاً .

(٢٥) أوليفر كرومويل (١٥٩٩-١٦٥٨) رجل دولة انجليزي عظيم وقائد جيش شهير ، وضع حداً للحرب الأهلية في انجلترا آنذاك ، وقاد حروباً ناجحة

ضد هولاندا وأسبانيا وبذلك نهض بقوة انجلترا البحرية والتجارية . وكان أيضاً من أتباع المتطهرين المتشددين ، وهم البروتستانت الانجليز الذين أرادوا أن يعيدوا للكنيسة طهارتها بتخليصها من كل أخطاء الكاثوليك .

(٢٦) دينيه ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) أحد أعلام الكتاب في عصر التنوير الفرنسي ، كان رئيس تحرير دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة ومؤلف العديد من مقالاتها . وله العديد من الروايات والمسرحيات الفكاهية . ووصفه هنا للنبي ﷺ بأنه «كان أفضل صديق للنساء وأكبر عدو للعقل» بجانب وصفه له بعد ذلك بأنه «مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة» يدل على التخبط والتناقض ، إذ كيف يوصف المشرع الماهر الداعي إلى الفضيلة بأنه عدو للعقل؟ ومن ناحية أخرى فإن من المعلوم أن النبي ﷺ قد أوصى بالنساء خيراً في حديث مشهور . وهذا أمر يحسب للإسلام لا عليه .

(٢٧) يحيل بفانموللر هنا إلى ص٢١٥ حيث أشار هناك إلى ترجمة سافاري للقرآن التي ظهرت في باريس عام ١٧٨٣ وجاءت عقب ترجمات سيئة أخرى تركت في النفوس انطباعات سيئة عن القرآن ومضمونه وأسلوبه إلخ .

(٢٨) جوتفريد فلهلم ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) فيلسوف ألماني شهير ، كان صاحب عقلية موسوعية نادرة وكانت له جهود وابتكارات في مجالات علمية وفلسفية عديدة . وهو صاحب نظرية الذرات الروحية في الفلسفة وهي نظرية تقول بأن الكون مؤلف من جواهر بسيطة روحية كل منها يمثل الوجود كله .

(٢٩) ليسنج (جوتهولد إفرايم) : «١٧٢٩ - ١٧٧٨م» ، من أعظم أدباء ألمانيا في القرن الثامن عشر ، عمل على تحرير الشعر الألماني من الاعتماد على النماذج الفرنسية . وقد أصبح أسلوبه نموذجاً يحتذى في النثر الأدبي ، كتب

عدداً من المسرحيات الفكاهية وله أعمال أدبية أخرى مشهورة .

(٣٠) كاردانوس (١٥٠١ - ١٥٧٦) طبيب إيطالي وعالم في الرياضيات ، كتب سيرة حياته بنفسه ، وله جهود في مجال الرياضيات معروفة باسمه .

(٣١) على الرغم من أن ليسنج قد تحدث حديثاً طيباً عن الإسلام بعد هذه العبارات إلا أنه في هذه العبارات السابقة يخلط - كما يفعل غيره كثيرون أيضاً - بين الإسلام كدين وتعاليم وبين عادات وتقاليد أو سلوكيات معينة للأتراك العثمانيين في ذلك الزمان . وقد كانت الدولة العثمانية لا تزال حينذاك ذات قوة مؤثرة في العالم ، وكانت أوربا لا تزال تخشى بأسها وتحسب لها ألف حساب .

(٣٢) توماس هايد (١٦٣٦ - ١٧٠٣) مستشرق انجليزي ، كان أستاذاً للعربية والعبرية في أكسفورد .

(٣٣) أشار بفانموللر في ص ٢١٧ إلى هاتين الترجمتين ، وذكر أن الترجمة الأولى قد ظهرت عام ١٧٧٢ واعتمد فيها ميجرلين بجانب النص الأصلي على ترجمات سابقة في لغات أخرى . أما الترجمة الثانية فقد ظهرت عام ١٧٧٣ ، ويرى بفانموللر أنها أفضل من الترجمة الأولى .

(٣٤) يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) يعد أعظم شعراء ألمانيا على الإطلاق ، كان منصفاً للشرق وللإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، قرأ القرآن وتأثر به واقتبس منه الكثير وبخاصة في الديوان الذي أطلق عليه اسم «الديوان الشرقي الغربي» .

(٣٥) نشر هذا الكتاب في يينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

(٣٦) إدوارد جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) مؤرخ انجليزي شهير . وقد ظهر كتابه المشار إليه في عامي ١٧٧٧ / ١٧٧٨ وترجم إلى الألمانية عام ١٩٠٣ .

(٣٧) إذا كان جيبون لم يستطع أن يدرك الفرق بين الحماس الديني الحقيقي والدجل فلعله كان في وسعه أن يدرك الفرق بين الحق والباطل لو تجرد لطلب الحقيقة بعيداً عن الأهواء والأحكام السابقة . والفرق بين الحق والباطل ليس مجرد خطوة واحدة بل هو فرق ما بين السماء والأرض .

(٣٨) يوهان جوتفريد فون هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) كاتب ألماني معروف وعالم في اللاهوت . ومن مؤلفاته (أفكار لفلسفة تاريخ الإنسانية) وقد تأثر به جوته في شبابه .

(٣٩) الفكرة الأساسية المسبقة لدى هردر وأمثاله هي أن القرآن من تأليف محمد ، ولذلك فهو مرآة نفسه وإنتاج عقله . ومن هنا فإذا ورد في القرآن أنه وحي الله اعتبروا ذلك نوعاً من الخداع أو التضليل . وإذا كان هذا هو موقفهم الأساسي الذي يسيطر عليهم قبل التعرف على القرآن فلن يصلوا إلى حقيقة الإسلام أبداً إلا إذا أزالوا عن أعينهم وقلوبهم هذه الغشاوة المتمثلة في الأوهام والأحكام السابقة ، وتخلصوا من التعصب الذي يحجب عنهم نور الحقيقة .

(٤٠) هذه كلها مزاعم لا تعتمد على أي أساس من الواقع ولا من التاريخ ، وتدخل كلها في باب التخمينات والظنون . وما قام به النبي ﷺ في المدينة من تنظيم المجتمع وتأسيس الدولة والدفاع عنها بكل الطرق المشروعة يعد جزءاً لا يتجزأ من الإسلام الذي جاء نظاماً للحياة بكل جوانبها . وإذا كان هذا يخالف مفهوم الدين لدى الغربيين فعليهم أن يعيدوا النظر في أفهامهم وتصوراتهم بدلاً من خداع النفس بأنهم هم وحدهم أصحاب الحق والحقيقة .

(٤١) جوزيف توسن رينو (١٧٩٥ - ١٨٦٧) مستشرق فرنسي ، كان أميناً لقسم المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس ، وأستاذاً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية ، وله جهود علمية في مجالات الأدب العربي والتاريخ تأليفاً وتحقيقاً وترجمة .

(٤٢) بورجشتال (١٧٧٤ - ١٨٥٦) مستشرق نمساوي شهير ، له دراسات عديدة في تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الإسلام . أصدر أول مجلة استشراقية متخصصة في أوربا عام ١٨٠٩ هي مجلة (ينابيع الشرق) . وأهم مؤلفاته : تاريخ الدولة العثمانية في عشرة مجلدات ، وتاريخ الآداب العربية في سبعة مجلدات .

(٤٣) هو حسين بن محمد الديار بكري (توفي حوالي ١٥٧٤م) تولى القضاء في مكة ، وكان شافعي المذهب . ومن مصنفاته (تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس) تناول فيه سيرة النبي ﷺ وتاريخ الخلفاء إلى السلطان مراد العثماني .

(٤٤) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبي (توفي عام ٩٥٦هـ) . فقيه حنفي من أهل حلب . تفقه بها وبمصر ثم استقر في القسطنطينية وتوفي بها . وأشهر كتبه (ملتقى الأبحر) ومختصر طبقات الحنابلة وتلخيص القاموس المحيط (راجع الأعلام للزركلي) .

(٤٥) المعروف أن محمداً ﷺ قد تزوج خديجة - التي كانت تكبره بسنوات - وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وكان قد سبق لها أن تزوجت قبل ذلك مرتين ، وظلت له زوجة وحيدة إلى أن ماتت بعد أن أمضى معها خمسة وعشرين عاماً . وبعد ذلك -أي وهو في العقد السادس من عمره - تزوج سودة بنت زمعة أرملة أحد صحابته ثم تزوج باقي نسائه لأسباب إنسانية

نبيلة أو أهداف تشريعية ، فأين هنا ضلال شهوانيته المزعوم؟ . أما الثأر لشرفه المهان وحدة الطبع إلخ فهذا لم يعرف عنه إطلاقاً . فقد كان (رحمة للعالمين) تمكن من أهل مكة الذين لاقى هو وأصحابه على أيديهم الأمرين ، وكان يستطيع أن يجمعهم ويأمر بقتلهم جزاء وفاقا على ما اقترفوه في حقه وحق أصحابه من جرائم ، ولكنه عفا عنهم يوم فتح مكة عفواً مطلقاً وقال قولته الشهيرة : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» . (انظر كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص٣٨ ، ٣٩ ، ٤٧) .

(٤٦) توماس كارلايل (أوكارليل) - ١٧٩٥ - ١٨٨١ . مؤرخ انجليزي وأحد فلاسفة الحضارة . وقد قام الأستاذ على أدهم بترجمة الجزء الخاص بالنبي ﷺ في كتاب (الأبطال) إلى اللغة العربية .

(٤٧) لقد تحدث كارلايل حديثاً إيجابياً تماماً عن محمد ﷺ ، ولكنه عاد وخيب الآمال برأيه في القرآن وهذا الرأي ينبني -في نظرنا- على أمرين هما : أولاً : الموقف الأساسي الغربي الذي يصر على أن القرآن من تأليف محمد . وكارلايل - كما هو واضح - لا يشذ عن هذا الموقف . ثانياً : الترجمات السيئة للقرآن والتي تعطي مثل هذا الانطباع الذي تحدث عنه كارلايل .

ولا نريد أن نتجنى على كارلايل ونقول إنه قد تعمد الإساءة للقرآن . ولكن الأمر الذي لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان هو أن محمداً ﷺ كان متخلقاً بأخلاق القرآن كما قالت عنه عائشة رضى الله عنها . فكيف يمكن لكتاب يشتمل على بلبلة ثقيلة ومحيرة وعلى سخف لا يحتمل . الخ أن يخرج لنا هذه الشخصية العظيمة التي تحدث عنها كارلايل نفسه بكل إكبار وتعظيم . أليس في ذلك ما يدعو الغربيين إلى إعادة النظر في تلك الأحكام الجائرة على أقدس مقدسات الإسلام وهو القرآن؟

(٤٨) جوستاف فايل (١٨٠٨ - ١٨٨٩) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً للغات الشرقية . قام بترجمة كتاب «ألف ليلة وليلة» إلى الألمانية ، ثم توفر على دراسة التاريخ الإسلامي . وأهم مؤلفاته - فضلاً عن كتابه عن حياة محمد (١٨٤٣) - مقدمة تاريخية نقدية في القرآن (١٨٤٤) وتاريخ الخلفاء - في ثلاثة مجلدات (١٨٤٦ - ١٨٥١) وتاريخ الخلفاء العباسيين في مصر (١٨٦٠ - ١٨٦٢) . راجع : (Fueck, P. 175) .

(٤٩) انظر ما سبق ذكره في ذلك عند الحديث عن جانبيه فذلك ما يعنيه بفانموللر هنا في إحالته إلى ص ١٧١ .

(٥٠) أشار بفانموللر في ص ٢٢٧ إلى أن كتاب تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي من أكثر الكتب استخداماً لدى المستشرقين لسهولة استعماله .

(٥١) في ص ٢١٤ تحدث بفانموللر عن ترجمة ماراتشي للقرآن وجهوده في هذا الصدد وفي ص ٢١٦ تحدث عن ترجمة سيل للقرآن وما لها وما عليها وعن مقدمته التمهيدية الشهيرة .

(٥٢) في ص ١٢٨ أشار بفانموللر إلى المستشرقين الذين اهتموا بتاريخ أبي الفداء ومنهم جانييه وأدلر وفرجيه وموري .

(٥٣) فرجيه (١٨٠٥ - ١٨٦٧) مستشرق فرنسي ، له بعض الجهود العلمية عن ابن خلدون .

(٥٤) ما يشير إليه بفانموللر في ص ١٧٥ سبق الحديث عنه هنا في هذا البحث عند الحديث عن رينو .

(٥٥) في ص ١٠١ يتحدث بفانموللر عن جايجر وما يزعمه من التأثيرات اليهودية في الإسلام وفي القرآن على وجه الخصوص .

(٥٦) في ص ١٠٩ يتحدث بفانموللر عن الصلة بين القرآن والعهد الجديد ويشير إلى أن جيروك قد بحث هذه المسألة وانتهى إلى أن محمداً قد أخذ معلوماته عن المسيح من التراث الشعبي الذي كان سائداً في بلاد العرب .

(٥٧) هو نور الدين بن برهان الدين علي بن إبراهيم القاهري الشافعي (٩٧٥هـ - ١٠٤٤هـ) وأشهر مؤلفاته السيرة النبوية بعنوان (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) وتدعى عادة السيرة الحلبية .

(٥٨) هينر إفالد (١٨٠٣ - ١٨٧٥) مستشرق ألماني ، كان عالماً في اللاهوت ومتخصصاً في العهد القديم وعلى دراية بعدد كبير من اللغات الشرقية وغير الشرقية .

(٥٩) يحيل بفانموللر هنا إلى ص ٢٢١ حيث يتحدث هناك عن محتويات هذا الكتاب .

(٦٠) كوسان دي برسيفال (١٧٥٩ - ١٨٣٥) مستشرق فرنسي وكان أستاذاً للغة العربية في معهد فرنسا الذي تخرج فيه .

(٦١) واشنطن إيرفنج مستشرق أمريكي وقد صدر كتابه (حياة محمد) في نيويورك عام ١٨٤٩ وترجم إلى الألمانية عام ١٨٥١ .

(٦٢) إرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسي . من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) الذي ترجمه عادل زعيتر إلى العربية . وكتابه الذي يعتمد عليه بفانموللر هنا هو : دراسات في تاريخ الأديان - باريس ١٨٥٧ .

(٦٣) نشر بحث إرنست ماير عن : (محمد : حياته وتعاليمه) في مجلة اللاهوت العلمي في يينا بألمانيا عام ١٨٥٨ . العدد رقم ١ من ص ٤٧١ إلى ٤٨٨ .

(٦٤) السير وليم موير (١٨١٩ - ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندي . صدر كتابه عن (حياة محمد) في أربعة أجزاء في لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ .

(٦٥) ألويس اشبرنجر (١٨١٣ - ١٨٩٣) مستشرق نمساوي الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨ ، كان أستاذاً للغات الشرقية في جامعة برن بسويسرا وعمل أيضاً في الهند ، ويقول المستشرق الألماني المعاصر رودي بارت عن كتاب اشبرنجر (حياة محمد) : «إنه كتاب جاء مخيباً للآمال في أكثر من ناحية وإنه لم يراع شروط ومتطلبات التقرير العلمي» (راجع : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية لبارت ص ٢٣) .

(٦٦) على أي أساس ينبني هذا الادعاء العريض بأن الأوربيين وحدهم هم الذين لديهم مصادر عن أصل نشأة الإسلام ؟ هذا وهم لا يعتمد إلا على منطق العجرفة وعقدة التفوق لدى الأوربيين !

(٦٧) هكذا ورد التعبير في الأصل ولعله يقصد بذلك أنه لم ينبع من سبب مادي بحت .

(٦٨) الغرض إذن من باديء الأمر هو البحث عن مساويء ، وحيث أنه سيعييه البحث عنها دون جدوى فإنه يلجأ إلى تخيل مساويء من كلمات المدح . فهل هذا منطق ؟ وهل هذا منهج علمي مقبول ؟

(٦٩) راجع تعليقنا على مثل هذه المزاعم في ص ٩٠ من العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة .

(٧٠) هكذا يحلو لكثير من المستشرقين تسمية الهجرة إلى المدينة هروباً . ولو كان الأمر أمر هروب لما كان هناك مبرر لأن يظل محمد في مكة حوالي ثلاثة عشر عاماً منذ بدء الدعوة يتعرض فيها هو وأصحابه لأقسى ألوان التعذيب والاضطهاد والحصار والتجويع . ولو أراد أن يهرب لفعل ذلك قبل الهجرة

بسنوات ، وبخاصة بعد موت خديجة وعمه أبي طالب الذي كان يحميه من غدر المشركين . فالأمر لم يكن إذن يتعلق بإرادة محمد ﷺ في تحديد الموعد الذي يترك فيه أحبْ بلاد الله إلى نفسه مهاجراً إلى المدينة أو غيرها من بلاد الله ، ولكنها إرادة الله ، ولم يكن له إلا أن يمتثل لأمر الله .

(٧١) تيودور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠) مستشرق ألماني معروف ، كان أستاذاً للغات الشرقية في عدد من الجامعات الألمانية ، له إنتاج غزير في مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربي واللغات السامية والدراسات الإسلامية . وقد صدر كتابه «حياة محمد» في هانوفر بألمانيا عام ١٨٦٣ .

(٧٢) لودولف كريل (١٨٢٥ - ١٩٠١) مستشرق ألماني . ساعد في نشر الجزأين الأولين من كتاب نفح الطيب للمقري . ونشر ثلاثة أجزاء من الجامع الصحيح للبخاري . أما كتابه عن «حياة محمد» فقد صدر في ليبتزج بألمانيا عام ١٨٨٤ .

(٧٣) يشير بفانموللر في ص٢٦١ إلى هذه البحوث التي نشرها كريل ، وأهمها بحث عن «عقيدة القضاء والقدر في القرآن وصلتها بعقائد الإسلام الأخرى» وبحث عن عقيدة الألوهية وبحث عن خصائص العقيدة في الإسلام .

(٧٤) أوجست موللر (١٨٤٨ - ١٨٩٢) مستشرق ألماني . كانت رسالته للدكتوراه عن امريء القيس ، وكان يطلق على نفسه أيضاً اسم امريء القيس بن الطحان كان أستاذاً للعربية في جامعة فيينا ، له دراسات في الأدب العربي والفلسفة واللغة وله جهود في نشر وتحقيق وترجمة بعض الكتب العربية . وقد صدر كتابه عن «الإسلام في الشرق والغرب» في برلين عام ١٨٨٥ . (راجع المستشرقون للعقيقي جـ ٢ ص ٣٩١ وما بعدها) .

(٧٥) يحاول أوجست موللر هنــا تطبيق مفـاهيم المسيحيين وتصـوراتهم حول الطبيعة الإلهية والقداسة وعزل الدين عن السياسة على الإسلام . وهذا أمر ليس له ما يبرره على الإطلاق . فالدين من حيث هو دين ليس هو -يقيناً- ذلـك المفهوم الأوربي المسيحي . وإذا كانت الأفهام المسيحية قد حولت المسيحية إلى هذه الصورة التي نعرفها والتي استخلص منها موللر مفاهيمه فإن الإسلام قد جاء بتصحيح هذه التصورات وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح .

(٧٦) هوبرت جريمه (١٨٦٤-١٩٤٢) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً للغات الشرقية في مونستر Münster بألمانيا . ومن مؤلفاته : «محمد» في جزأين . وله دراسات حول اسم محمد ، وأصول ديانة محمد ، والأهمية التاريخية العالمية لبلاد العرب في عصر محمد ، والإسلام واليهودية وغيرها .

(٧٧) إذا كان جريمه وأمثاله لم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف من الأحاديث فإن علماء المسلمين قد توصلوا إلى ذلك منـذ قرون ، وفي مقدمتهم أصحاب الكتب الستة التي أجمع المسلمون منذ ذلك الزمن البعيد على حجيتها والاعتداد بها .

(٧٨) هذا كلام غير صحيح . فهنـاك أحـاديث كثـيرة من الفترةالمكية . وقد عالجت مسـائـل العقيدة والأخلاق والحض على الصدقة وتناولت فريضة الصلاة وقصة الإسراء والمعراج وتحريم الخمر والزنا والربا وغير ذلك من موضوعات .

(٧٩) يثير المستشرقون منذ زمن طويل قضية الترتيب الزمني للسور القرآنية ، ولهم في ذلـك وجهات نظر متعددة . والأمر الذي عليه المسلمون هو أن هذه القضية توقيفية لا تخضع للاجتهاد البشري . والنبي ﷺ لم يترك الأمر في

ذلـك للأهـواء والأغراض ، بل حسمه بتوجيه إلهي تم بناء عليه ترتيب الآيات والسور على النحو المعروف في المصحف .

(٨٠) لسنا هنا في مقام الدفاع عن محمد ﷺ ، فهو ليس في حاجة إلى دفاع . وهذا السباب لا يصيب إلا أصحابه كما سبق أن قال توماس كارليل . وقد كان عليه الصلاة والسلام كما وصفه القرآن «شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً» ، وهو القائل : بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا . ومن ناحية أخرى فقد سبق أن أشرنا مراراً إلى قضية السياسة والدين وأنه لا انفصالية بينهما كما تذهب إلى ذلك العلمانية الغربية التي يراد تقويم الإسلام من خلالها .

(٨١) لن نناقش هذه الدعوى المتهافتة . فالواقع والشواهد التاريخية الصحيحة تكذبها تماماً ، فضلاً عن أنها دعوى لا يوافقه عليها معظم المستشرقين ، ولعـل جريمـه وحـده قد انفـرد بها . وقد قام سنوك هورجرونيه بنقضها وتفنيدهـا كما يتضـح ذلـك في الصفحـات التالية وإن كنا لا نوافق على الأسلوب الـذي اتبعه هورجرونيه في تفصيل رده المشتمل على الكثير من المزاعم الباطلة .

(٨٢) يحاول سنوك هورجرونيه هنا وفيما يلي من تفاصيل بيان أن الاسلام دين مأخوذ أساساً من اليهودية والمسيحية . وقد كانت المعلومات التي تلقاها محمد عن هذين الدينين معلومات ناقصة وقاصرة نظراً لاعتمادها على مصادر مشكوك فيها . وهذا الاتجاه يكاد أن يكون اتجاهاً عاماً لدى المستشرقين الذين يريدون أن يظهروا الإسلام بمظهر الدين البشري الملفق من تلك المعلومات التي عرفها محمد عن طريق لقاءاته مع أتباع هذين الدينين . ولكن السؤال هو : لماذا لا يكون الإسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات

الـوحي الإلهي الذي أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية ؟ هل مبـدأ جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحي مبدأ مسلم به أم لا ؟ إنـه إذا كان هذا المبـدأ مسلماً به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية والمسيحية وتمنعه عن الإسلام ، وإذا لم يكن - في عرفهم - مبدأ مسلماً به فلا مجال للديانات جميعاً . (راجع في مناقشة هذا الموضوع كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٦٧-٧٣) .

(٨٣) لم يكن ذلك كله اجتهاداً من محمد ﷺ ، بل كان وحياً تلقاه من ربه عز وجل . وفي هذا الوحي تأكيد على وحدة الأصل البشري وإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل الناس شعوباً وقبائل لكي يتعارفوا وجعل أكرمهم عنده أتقاهم ، كما أشار الوحي إلى أنه ليست هناك أمة إلا خلا فيها نذير ، وأن الله قد أرسل إلى كل أمة رسولاً بلسان قومه . وهناك آيات قرآنية عديدة توضح هذه القضية بجلاء . ثم كانت رسالة محمد ﷺ رسالة عامة للناس جميعاً وليس للعرب فقط - كما يزعم هورجرونيه- . وفي أول إعلان جهري بالدعوة أعلن محمد ﷺ أنه أرسل إلى العرب خاصة وإلى الناس كافة . وجاء ذلك في الوحي المكي أيضاً في قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) -سبأ ٢٨- . وفي قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) -الأنبياء ١٠٧- .

(٨٤) لم يكن محمد ﷺ في حاجة إلى قراءة كتب اليهود والنصارى ولم تكن لديه معلومات مشوشة عن تلك الكتب ، لأن الله الذي أنزل التوراة والإنجيل هو نفسه الذي أخبر محمداً عن طريق الوحي بما طرأ على هذين الدينين من تحريف وتبديل ، وبين له طبيعة هذا التحريف .

(٨٥) ما يقـولـه هورجـرونيه في كل تفصيلاتـه حول موضوع علاقة محمد ﷺ باليهودية والمسيحية مبني على افتراض أن الإسلام دين بشري تفتق عنه ذهن محمد ﷺ . ومن هنا نجد هذا الحرص الشديد على تفسير كل شيء من هذا المنـطلق وبنـاء على هذا الفرض الذي يعده المستشرقون حجة مسلمة . فالأمـر إذن يدور حول رفض مسبق للإسلام بوصفه ديناً سماوياً . وهذا الرفض ليس له من علاج إلا دراسة الإسلام دراسة نزيهة محايدة دون أن تكون هناك أوهام وتصورات أو أحكام سابقة .

(٨٦) لم يكن ذلك معرفة توصل إليها محمد ، بل كان وحياً قرآنياً جاء في قوله تعالى : «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» . آل عمران ٦٧ - .

(٨٧) لقد ورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن في تسعة وستين موضعاً ، منها ثنتان وثلاثون مرة في آيات مكية وسبع وثلاثون مرة في آيات مدنية . وقد جاء الأمر باتباع ملة إبراهيم أولاً في آية مكية في قوله تعالى : «ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً» - النحل ١٢٣ - ، وتكرر هذا المعنى في أكثـر من آية مدنية ، مثـل قولـه تعالى : «ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل» - الحج ٧٨ - ، وقوله تعالى : «قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه» - الممتحنة ٤ - . أما بناء الكعبة فقد تم على يد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، كما ورد ذلك في قوله تعالى : «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل» - البقرة ١٢٧- .

ويريد هورجـرونيه كعـادة غالبية المستشرقين أن يصور علاقة محمد بإبراهيم عليهما الصلاة والسلام بأنها أسطورة كانت تدور في عقل محمد ﷺ انطلاقاً من زعمه الباطل بأن القرآن ليس وحياً حقيقياً من عند الله .

(٨٨) الإيمان بالله الواحد الذي لا شريك له مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان باليوم الآخر . والقرآن الكريم يربط باستمرار بينهما . فالإيمان باليوم الآخر ينبني على الإيمان بالله ، ولا يتصور إيمان باليوم الآخر دون الإيمان بالله . يقول الله تعالى : «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . . .» - البقرة ١٧٧ - . وقد ورد تعبير الإيمان باليوم الآخر مسبوقاً بالإيمان بالله في كل المواضع القرآنية التي ذكر فيها اليوم الآخر .

(٨٩) لم تكن هذه أفكاراً تتنازع في عقل محمد كما يزعم هورجرونيه ، وإنما كانت وحياً من عند الله . أما كون الحديث عن البعث والحساب والجنة والنار الخ قد جاء في البداية في صورة تثير العواطف وتهز القلوب فذلك يرجع إلى أن القلوب كانت فعلاً في حاجة إلى هذه الإثارة العاطفية نظراً لتحجرها وجمودها وانغلاقها . وقد سجل الوحي المكي ذلك في قوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل) -الأعراف ١٧٩- . ومن هنا كان حديث القرآن عن نهاية العالم ويوم القيامة بأوصاف الزلزلة والقارعة والراجفة والصاخة والطامة الكبرى وغير ذلك من أوصاف أخرى مماثلة . وبعد أن فتح الله القلوب الغلف والآذان الصم والأعين العمي ودخل الناس في دين الله أفراداً وجماعات لم يكن القرآن في حاجة إلى تكرير نفس الأسلوب فلكل مقام مقال . ولكن هذا الأسلوب سيظل أيضاً قائماً في كل العصور للقلوب التي يصيبها الوهن وللعقول التي يعتريها الغرور وللنفوس التي يطرأ عليها النسيان ، فيكون علاجاً ناجعاً مستمراً لأمراض القلوب .

(٩٠) لا يعجب المرء من مثل هذه التحليلات التي لا يكل معظم المستشرقين عن الجري وراءها وعرضها بشتى الأساليب في طلاء علمي زائف ، فهدفهم الرئيسي وشغلهم الشاغل هو محاولة طمس حقيقة الدين الإسلامي ، وأني لهم أن يبلغوا هدفهم أو يصيبوا منه شيئاً «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون» (الصف ٨) .

(٩١) منذ أن فرضت الزكاة في السنة الثانية للهجرة وهي تمثل أحد الأعمدة التي يقوم عليها بنيان الإسلام . وما فعله أبو بكر رضى الله عنه لم يكن إلا إقراراً وتأكيداً لذلك ودفاعاً عنه . ومن هنا كان قوله بصدد مانعي الزكاة «والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليه» . أما مصارف الزكاة فقد حددها القرآن الكريم في آية مدنية في قوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) -التوبة ٦٠- .

(٩٢) البر اسم جامع للخير ولكل فعل مرض ، ويدخل في ذلك بطبيعة الحال الإنفاق في وجوه الخير وفي ذلك يقول القرآن الكريم : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» -آل عمران ٩٢- . وقد حث القرآن على البر في العديد من الآيات مؤكداً ما لهذه الفضيلة من أهمية بالغة في حياة المؤمن .

(٩٣) هنا إحالة إلى ص ٢٠٠ من كتاب بفانموللر حيث يعرض بالتفصيل لما تضمنه كتاب جريمه من حديث عن علم العقيدة القرآني .

(٩٤) علاقة السنة بالقرآن علاقة وثيقة ، فهي - كما يقول الإمام الشاطبي - «راجعة في معناها إلى الكتاب ، فهي تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره» ولا تجد في السنة أمراً إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية . والسنة ليست قاضية على الكتاب وإنما هي مفسرة له وشارحة

لمعاني أحكامه . (راجع الموافقات للشاطبي جـ ٤ ص ١٠ - ١٢) .

(٩٥) الديانات السماوية تختلف في طبيعتها عن الديانات البشرية . فهذه تخضع لمنطق التأثير والتأثر . ومن هنا يمكن البحث عن أصولها وفروعها في حضارات وديانات قديمة ، أما الديانات السماوية القائمة على الوحي الإلهي فلا تخضع لهذا المنطق . وما يبدو فيها من تشابه يرجع إلى وحدة الأصل الإلهي . والوحي اللاحق يصحح ما طرأ على الوحي السابق من عناصر غريبة . وقد بين القرآن - وهو النص الديني الذي لم تنله يد التحريف والتبديل باعتراف كثير من المستشرقين وعلى رأسهم رودي بارت صاحب أحدث ترجمة ألمانية للقرآن - بين ما طرأ على اليهودية والمسيحية من تصورات لم يتضمنها الوحي الأصلي ولا صلة لها بالوحي الحقيقي ومنذ أن كشف القرآن عن ذلك والحملة مستمرة من أتباع هذين الدينين ضد الإسلام ، ولا تزال قائمة لإظهاره بمظهر الدين البشري الملفق من ديانات وحضارات سابقة .

(٩٦) الأحرى أن يقال إنها فرضية باطلة تستهين بعقول الناس . فإذا كان دين الرحمانان هذا المزعوم لم يثبت إطلاقاً - كما يقول بفانمولر نفسه - أنه كان ديناً خاصاً له كيان متميز فكيف يمكن أن ينتج عنه هذا الدين العالمي المتمثل في الإسلام ؟

(٩٧) فرانتس بول (١٨٥٠ - ١٩٣٢) مستشرق دانماركي ، كان أستاذاً للعهد القديم وللغات السامية . له دراسات إسلامية عديدة أهمها كتابه عن (حياة محمد) الذي صدر في كوبنهاجن عام ١٩٠٣ . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الألمانية عام ١٩٣٠ ، ونظراً لأن بفانمولر قد ألف كتابه عام ١٩٢٣ فلم تكن الترجمة الألمانية قد ظهرت بعد إلى حيز الوجود ، ومن هنا كان تعبيره

عن الأسف لعدم ترجمة كتاب بول إلى الألمانية .

(٩٨) فنكلر (١٨٦٣ - ١٩١٣) مستشرق ألماني .

(٩٩) د. س. مرجليوث (١٨٥٨-١٩٤٠) مستشرق إنجليزي معروف ، كان أستاذاً للعربية في جامعة أكسفورد منذ عام ١٨٨٩ ، له دراسات عديدة عن الإسلام وتاريخه والأدب العربي وأصوله . وقام بترجمة الكثير من النصوص العربية ، كما قام أيضاً بتحقيق عدد من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : محمد ونهضة الإسلام (١٩٠٥) والإسلام (١٩١١) وانتشار الإسلام (١٩١٤) وجنوب الجزيرة العربية والإسلام ، وأصول الشعر العربي (١٩٢٥) . وهذا البحث الأخير هو الذي اعتمد عليه الدكتور طه حسين في كتابه عن (الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦ .

(١٠٠) انظر الهامش الذي سيأتي في نهاية هذا البحث عن هذا المذهب عند الحديث عن ماير Meyer .

(١٠١) لقد كان بفانموللر محقاً في تعليقه على كلمات مرجليوث المسفه بأنه بذلك قد سد على نفسه الطريق لفهم أخلاق محمد وتطوره . فالعالم يجب أن يترفع عن مثل هذا الإسفاف ويرتفع إلى مستوى المسئولية العلمية حتى يستطيع أن يرى الحقيقة كما هي دون زيف .

(١٠٢) إجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) مستشرق يهودي من أصل مجري ، كان أستاذاً في جامعة بودابست . يعد من كبار أئمة الدراسات الإسلامية في أوربا . كتب العديد من البحوث عن الإسلام باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية وغيرها . وقد شكك في الأحاديث النبوية واعتبرها في جملتها تعكس تطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرنين الأول والثاني . وقد تلقف كثير من المستشرقين من بعده هذا الزعم

وبنوا عليه الكثير من النتائج . ولسنا هنا في معرض مناقشة هذه الدعوى التي تفتقد الأساس العلمي السليم ، فقد سبق أن ناقشها وفندها وبين تهافتها عدد من علماء المسلمين . راجع في ذلك على سبيل المثال : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي . انظر أيضاً كتابنا الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص ٩ وما بعدها .

(١٠٣) الأمير ليوني كيتاني (١٨٥٩-١٩٢٦) مستشرق إيطالي . له دراسات واسعة في تاريخ الإسلام .

(١٠٤) يشير بفانموللر في ص ٣٦ من كتابه إلى كتاب كيتاني (حوليات الإسلام) في تسع مجلدات ، وكتابه (دراسة لتاريخ الشرق) في أربع مجلدات .

(١٠٥) الإسلام دين ودنيا ، سياسة وأخلاق ، عقيدة وشريعة ، وهذا أمر لا يريد المستشرقون أن يفهموه . ثم ما هي تلك الأعمال التي صدرت من محمد وتجرح الشعور الأخلاقي لدى الأوربيين جرحاً بالغاً ؟ وما هي نقاط الضعف الإنساني التي يريد أن ينسبها كيتاني إلى الله عز وجل ؟ هذا كلام غريب لا سند له على الإطلاق من عقائد الإسلام وتشريعاته . فالإسلام جاء ليتمم الله به مكارم الأخلاق ، وتنزيه الله في الإسلام عن صفات المخلوقين ومخالفته للحوادث من الأمور المشهورة التي لا تحتاج إلى مزيد بيان .

(١٠٦) الأب لامانس (١٨٦٢ - ١٩٣٧) بلجيكي المولد فرنسي الجنسية انضم إلى سلك الرهبنة عام ١٨٧٨ ، كان أستاذ العربية في جامعة القديس يوسف في بيروت التي تخرج فيها وتنقل شرقاً وغرباً ثم استقر في بيروت وتوفى بها . وله دراسات عديدة عن الإسلام وتاريخه وقد أشار نجيب العقيقي إلى عناوين بحوث لامانس في ثلاث صفحات كاملة . وكتابات لامانس تتسم

بالتعصب ضد الإسلام . وهذا أمر ليس غريباً على راهب يحاول أن يدافع عن دينه على حساب الإسلام .

(١٠٧) لقد سبق الحديث عن نولدكه في هامش سابق . أما كارل هينريش بيكر Becker (١٨٦٧-١٩٣٣) فهو مستشرق ألماني ، كان أستاذاً في هامبورج وبون ، له دراسات عديدة في التاريخ الإسلامي . وقد أنشأ مجلة «الإسلام» الألمانية Der Islam عام ١٩١٠ .

(١٠٨) فريدريش شفالي (١٨٦٣ - ١٩١٩) مستشرق ألماني نشر كتاب المحاسن والمساويء للبيهقي عام ١٩٠٢ واشترك في نشر الطبقات لابن سعد ، وله دراسات في القرآن والجغرافيين العرب وجغرافية مصر .

(١٠٩) هدف الأب لامانس هو التشكيك والذهاب في ذلك إلى أبعد مدى . وقد لاحظ ذلك أيضاً بعض المستشرقين المعتدلين نسبياً ورفضوا وجهات نظره المجاوزة للحد كما هو واضح من مناقشات كل من نولدكه وبيكر وشفالي وملاحظات بفانموللر أيضاً .

(١١٠) هذه نظرية غريبة لم يقل بها - فيما نعلم - أحد من المستشرقين ولا من غيرهم من قبل . ولعلها محاولة من جانب لامانس ليبني عليها ما يريد أن يستنتجه من المزيد من التشكيك .

(١١١) لامانس حر في أن يعتقد ما يشاء ، ولكنه ليس حراً حينئذ في أن يحدثنا عما يعتقد باسم العلم فالعلم بريء من مثل هذه الأراجيف الباطلة . فحياة محمد ﷺ ناصعة البياض في كل جوانبها من بدايتها إلى نهايتها . ولكنه منطق التعصب الدميم يعمي القلوب والأبصار عن رؤية الحقيقة .

(١١٢) عبثاً يحاول المرء إفهام المستشرقين بأنه لا انفصالية بين الدين والسياسة في الإسلام ، فهناك إصرار على فرض مفهومهم للدين على الإسلام . ونحن

من جانبينا لا نقبل هذا المفهوم لأنه مفهوم قاصر لا يأخذ في اعتباره إلا الجانب الروحي فقط من الإنسان . والإسلام بتعاليمه جاء ليقيم التوازن بين كل جوانب الإنسان الروحية والعقلية والجسمية . فمتى يدركون ذلك ؟

(١١٣) يشير بفانموللر في ص ٣٧ إلى تبني كيتاني للنظرية القائلة بأن الجفاف المتزايد في بلاد العرب هو الذي دفع المسلمين إلى الفتوحات الإسلامية واضطر السكان إلى الهجرة .

(١١٤) لم نعثر فيما بين أيدينا من مراجع على ترجمة لحياة كل من سل ودرايكوت . أما السير توماس أرنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠) فهو مستشرق انجليزي كان أستاذاً في جامعة عليكره ولا هور بالهند ثم أصبح أستاذاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية في لندن . له دراسات إسلامية عديدة . وأهم مؤلفاته كتاب (الدعوة إلى الإسلام) الذي ترجم إلى العربية والتركية والأوردية .

(١١٥) هـ. ريكندورف (١٨٦٣ - ١٩٢٤) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً للعربية في فرايبورج . وقد صدر كتابه المشار إليه في ليبتزج عام ١٩٠٧ .

(١١٦) يوسف هيل (١٨٧٥ - ١٩٥٠) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً بجامعة إرلا نجن بالمانيا وله اهتمام خاص بالشعر العربي . وقد ظهر كتابه «حضارة العرب» في ليبتزج عام ١٩٠٩ ثم أعيد طبعه عام ١٩١٩ . وقد ترجمه إلى الانجليزية خودابخش عام ١٩٢٥م .

(١١٧) ج. كامبفماير (١٨٦٤ - ١٩٣٦) مستشرق ألماني ، كان أستاذاً للعربية في ماربورج ورأس تحرير مجلة «عالم الإسلام» له دراسات في الأدب العربي المعاصر .

(١١٨) ظهر كتاب ريم بالألمانية عام ١٩١٥ في ليبتزج بعنوان : «محمد وعالم الإسلام» .

(١١٩) ادوارد ماير (١٨٥٥ - ١٩٣٠) مستشرق ألماني . صدر كتابه عن (أصل المورمون وتاريخهم مع نظرة حول بدايات الإسلام والمسيحية) في هاله بألمانيا عام ١٩١٢ .

(١٢٠) المورمون طائفة مسيحية ، أسسها في الولايات المتحدة عام ١٨٣٠ جوزيف سميث (١٨٠٥ - ١٨٤٤) وادعى أنه يوحي إليه . وقد أسس المورمون عام ١٨٤٨ مدينة المورمون انتظاراً لعودة المسيح . والسؤال الآن هو : أي أوجه شبه يريد أن يستخلصها ماير من مقارنته بين بعثة محمد ﷺ ومؤسس هذه البدعة الجديدة جوزيف سميث ؟ إن هذا ضرب من العبث واستهانة بعقلية القارىء الذي لا تخفى عليه أهداف هذا العبث الذي ليس له مبرر ديني أو أخلاقي .

(١٢١) وردت «سدرة المنتهى» في سورة النجم في قوله تعالى : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى﴾ والسدرة معناها شجرة . أما أنها سدرة المنتهى أي التي ينتهي إليها المطاف فجنة المأوى عندها ، أو التي انتهت إليها رحلة المعراج أو التي انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ﷺ . أما أنها شجرة كانت في مكان معين لدى مكة ضاعت معالمه بعد ذلك ، فهذا أمر لا يمكن فهمه من سياق الآيات على الإطلاق . وليس له ما يبرره إلا محاولة فهم الإسلام بأنه مقطوع الصلة بالسماء .

(١٢٢) كلمـة (اقـرأ) في قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ تعني القراءة لا التلاوة . ويؤيد ذلك ما ورد في حديث بدء الوحي الذي رواه الإمـام أحمـد والشيخان عن عائشة وفيه : « فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء» . فرده عليه الصلاة والسلام بقوله : ما أنا بقارىء يدل على أن المراد هو القراءة بمعناها المعهود .